أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

تصورات أولية

١٤٠٢هـ

توزيع عالم الكتب
المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٦٤٦٠ هاتف ٤٠٤٣٣٨٣
برقيا: رويبة تلكس ٢٠١٤٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ

توزيع عالم الكتب

طبع بمطابع الفرزدق بالرياض
تلفون ٤٧٨٨٥١٠

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

تصورات أولية

١٤٠٢هـ

توزيع عالم الكتب
المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٦٤٦٠ هاتف ٤٠٤٢٣٨٢
برقيا: رويبة تلكس ٢٠١٤٧٧

١ — إضاءة على طريق الانتماء الصحيح.

٢ — الحرية الفكرية.

٣ — الإيجابية الفكرية.

٤ — الثوابت الفكرية.

٥ — الاطرادات الفكرية.

٦ — الحتمية الفكرية تبعا للحتمية الكونية.

٧ — سيادة النص وحق التفكير.

٨ — المعادلة الشرعية.

٩ — المعادلة التاريخية.

١٠- شعار الهوية الإسلامية.

١١- محور الهوية الإسلامية.

١ ـ إضاءة على طريق الانتماء الصحيح

١٠ــ شعار الهوية الإسلامية.

١١ــ محور الهوية الإسلامية.

١ ـ إضاءة على طريق الانتماء الصحيح

الحمد لله حمدا طيبا مباركا فيه، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه وأشـهـد أن محـمـدا عـبـده ورسوله صلى الله عـلـيـه وعلى آله وصحبه ومن تبع هديه إلى يوم الدين.. وسلم تسليما كثيرا.

وأصلي وأسلـم عـلـى جميع أنبياء الله ورسلـه وأتـبـاعهم إلى أن نسخ الله الأديان بـديـن الإسـلام فلم يرتض غير الإسلام دينا ولم يـقـبـل غير محـمـد صـلى الله عليه وسلم متبوعا فيما يبلغه عن ربه سبحانه وتعالى.

أما بعد : فأخشى أن يكون الانغماس

في المباحث والتحقيقات الأكاديمية فتنة لنا عما هو أوجب وأهم، والمخرج من هذه الفتنة أن يصحو صاحب الأكاديمية ولو سويعات من دهره ليتعامل مع أمته تعاملا فكريا خالصا، لأن انغماس الاكاديميين كلهو الأدباء ولا فرق، وهذان الطرفان هما رجال التوعية الفكرية، لأنهما صاحبا القلم!.

وإذا بلي القادر على التوعية بسنة تعاوده من الضعف البشري الذي يعوق سير انتمائه سلوكا وكان انتماؤه من إيجابياته الفكرية الثابتة فلا يعفيه هذا الضعف من إضاءات فكرية على طريق الانتماء، لأنه

سيهتدي بهذه الإضاءات — إن شاء الله — إن عاجلا أو آجلا، لأن تصميم الفكر لا يُقهر برخاوة الإرادة وإن طال الزمن.

وقد آثرت أن تكون بداية التعامل الفكري بإضاءات عاجلة عن تفكير المنتمي وهويته والله المستعان.

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

— عفا الله عنه —

١٤٠١/١٢/٢٥ هجرية

٢ ـــ الحريّة الفكرية

السيادة في حياة الفرد المسلم لمفهوم النص الشرعي، إلا أن هذه السيادة لم تتبوأ مكانها في حياته إلا بإيجابية الفكر المنبعثة من الحرية الفكرية.

وهذا العنصر أعرق مبدأ في نشأة الإسلام فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ثلاثة وعشرين عاما منها ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة ليس فيها سيف ولا مدافعة وإنما هي فترة مباركة قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في التبسط لما تتطلبه الحرية الفكرية من حوار ونظر واستدلال.

وآيات السور المكية أكبر شاهد على ذلك.

ومن وصية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن قال له:

قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

وأوصاه أن يجادلهم بالتي هي أحسن.

ولا مجال للمجادلة وطلب البرهان إلا في حضانة الحرية الفكرية.

ولحماية الحرية الفكرية من عبث العابثين كسرت النصوص الشرعية حاجز التبعية للهوى والعرف والعادة والحمية لسنة

الأسلاف، لتكون السيادة في هذا الجو لفطرة الله التي يشترك في الإذعان لها كل مخلوقات الله المكلفة من الجن والإنس وهي إيجابيات العقل: أي ضرورات الفكر.

إذن من خصائص الهوية الإسلامية سعة الصدر لمقتضى حرية الفكر فلا يقفل بابها حتى تتحدد الإيجابية الفكرية.

والإيجابية الفكرية هي الحق الذي تحدده قوانين العقل ولا مجال للحرية بعد هذا، لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، ولأن الحرية الفكرية التي تنتمي إليها هوية المسلم وهي الحرية المعقولة ليست

حرية لشهوة الجدل والمماحكة وإنما هي حرية للحق حتى يظهر.

والجماعة التي تذعن للحرية الفكرية يجب أن تقفل باب الحرية إذا ظهرت لها الإيجابية (الحق) بيقين أو رجحان.

أما ما استوى فيه الطرفان فباب الحرية مفتوح فيه دائما واللوم والتعنيف مرتفع وكل متبع لأحد الطرفين على حق حتى يوجد الرجحان أو اليقين.

والمجتمع المثالي إذا تساوى عنده الطرفان جعل المرجح قضية إرادية لا فكرية وذلك بالقرعة أو التصويت المنظم الذي يتم

عن انتخاب من يمثل بعض الأصوات.

ومن يتمسك بحرية الفكر بعد استنفاد الآراء وظهور اليقين أو المرجح الفكري أو الإرادي إنما يعبث بقيم الفكر وإيجابياته ويستمرىء انشقاق الجماعة ذلك أن الترجيح بدون مرجح عبث، واطراح اليقين أو المرجح عناد، وترجيح المرجوح تحكم ومكابرة وكل ذلك زعزعة للحياة المستقيمة التي لا تلتمس من غير إيجابيات الفكر.

وجميع عقوبات الشريعة ووازعها لحماية إيجابيات الفكر بعد استهلاك المجال لحريته.

والحرية ليست مضمونا لذاتها وإنما هي

مشروعة لغيرها (لاستبانة الإيجابية الفكرية) مرفوضة لغيرها عندما تتحدد الحتمية الفكرية بيقين أو رجحان.

٣ ــ الإيجابية الفكرية

إنه لا مجال للحسبانية ولا العناد في تصورات المسلم كما أنه لا مجال للقطيعة المؤسسة على غير برهان.

بل عقيدة المسلم أن عقله مخلوق من مخلوقات الله كما أن عقله هو وسيلته الوحيدة في المعرفة بما لديه من خبرة حسية ومبادىء فطر يةوخبرة بشر ية عامة تأدت إليه بالنقل فصدق بها يقينا أو رجحانا بموجب طرق التوثيق التاريخي التي ينظمها العقل أيضا.

ومنطق المسلم أنه لا يأخذ بالمرجوح في نصاب العقل و يلغي اليقين أو الراجح لأن

ذلك انحراف عن إيجابيات الفكر إلى العبث أو الهوى والتحكم والعصبية.

والمسلم ينظم معادلة بين كون العقل مخلوقا وكونه المصدر النهائي الوحيد لتصحيح المعرفة.

فمن المنطلق الأول لا يبتغي كيفيات الأمور التي لم تصل إلى قبضة الحس البشري، لأن الكيفية لا تعرف إلا بشاهد من نوافذ الحس على سبيل الإحساس المباشر أو الوصف أو التشبيه بمحسوس آخر.

كما أن ما تعذر الإحساس بكيفيته لا يكون وهما ولا حقيقة وإنما يكون:

إما واجبا متعينا (أي حقيقة خارجية) يعلم وجوده بضرورة العقل أو آثاره الحسية ولا تعرف كيفيته إلا بخبر من يوجب العقل تصديقه.

وكل الحقائق التي كانت في يوم ما مغيبة عن الحس البشرى إنما توصل إليها الحس بزيادة الإيجابية العقلية.

وما توصل إليه الحس مصادفة فلا يمكن أن يوجد في العقل إحالته.

وإما مستحيلا ممتنعا لا يمكن أن يكون في الحس.

والعلم الحديث إنما يحيل في كثير من

مجالاته بتصورات عقلية مسبقة.

وإما ممكنا محتمل الطرفين لتخلف المقتضى والمانع.

والفرد المسلم منطقي في تعامله الفكري وفق إيجابيات العقل وموانعه واحتمالاته ووفق وسيلة المسلم ذاته ووسيلة جيله في المعرفة.

وكلما استجدت وسائل جديدة للمعرفة أو خبرات حسية تُعين العقل في تصوره فإنه يحوّر في أحكامه وقضاياه تبعا للبرهان من غير أن يضيره ذلك لأن معرفته في الأمس بالنسبة لوسيلته في المعرفة بالأمس، ومعرفته اليوم بالنسبة لوسيلته هذا اليوم.

ومبدأ النسبية من الثوابت الفكرية التي لم تتخلخل على مدار التاريخ.

ومن المنطلق الثاني يرفض المسلم أي تصور لا يقر العقل وجوده أو كيفيته.

ومن هذه المعادلة يرفض المسلم أن يكون الحس أو التجربة (الحس المكرر) معيارا لوجود الحقيقة، ويلح على أن يكون معيارا لمعرفة كيفيتها.

فصفات الله وأخباره حقيقة وجودية ثابتة آمن بها العقل بضرورات فكرية وبآثار حسية صادرة عن هذه الحقيقة الوجودية ودالة عليها كبراهين المعجزة

المستمرة إلى يوم القيامة وكبراهين الخلق والحكمة المعروفة بدليل الغائية.

إن من عناصر هوية المسلم إيجابيته الفكرية فلا يلغي العقل وهو وسيلته الوحيدة لتصحيح معرفته، ولا يطلب من العقل ما ليس فيه لأنه حادث مخلوق.

ومنطق المسلم بناء على هذا العنصر أنه يستحث الحس البشري في تعميق معرفته في كل ما هو واقع تحت حسه، بدليل استحثاث الله عباده على التفكر والاعتبار واستثمار السمع والبصر والفؤاد.

ولو كان هذا العنصر من الهوية مفهوما

تاريخيا لكان المسلمون اليوم أولى الناس باستكشاف بعض قوانين الكون ودقائق العلم.

أما الحقائق التي آمن العقل بوجودها ولا يملك بحسه معرفة كيفيتها فلا يمكن أن يخلخل إيمانه بها الجزم بعجز الحس عنها كحقيقة الجن لأن في يقين المسلم أن لله غيبا لا يطلع عليه أحدا، وأن له غيبا لا يطلع عليه بعض خلقه.

وأعظم أداة لتحطيم الأمة خلخلة فكرها وانتكاس منطقها.

وأنا شديد الإيمان بأن الإغارة على

شرقنا الإسلامي غارة فكرية في الدرجة الأولى منذ حُلّ نظام الخلافة الإسلامية وانتهبت تركتها، وأعلم ثانية أن للصهيونية والصليبية تخطيطا منظما مدروسا لإبقاء شرقنا الإسلامي تحت الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي لا يمكن أن ينكر ذلك إلا من صمم بإرادة لا فكر على أن يعزل نفسه عما حوله، وأهم ثمار هذا التخطيط اللعين جاء من قبل تحطيم إيجابية الفكر، وقد تجلى ذلك في وسيلتين ووسائلهم اللئيمة أكثر من أن تحصر:

الوسيلة الأولى إفساد القيادات والزعامات وتربيتها تربية علمانية، وعداء

أغلب الزعامات للإسلام في بلادنا العربية والإسلامية حقيقة حسية مشهودة كل ما استُحدث زعيم شغل الفراغ بالشعارات الكاذبة مع ترديد العلمانية وترسيتها في حياة الناس وفي فكرهم فإذا برم الضمير الإسلامي بتلك الشعارات وسئم الاعتداء على مقدساته صفِّيت تلك الزعامة بأي تدبير من وراء الكواليس وأحل محلها زعامة جديدة لا سابقة لها ولا خطر إلا أنها ربيت تربية معادية للأمة دينيا وعسكريا واقتصاديا وهي تربية من وراء الكواليس أيضا تعيد حمى الشعارات السابقة وتمتص غضب الجماهير بمراوغات جديدة وربما افتعلت لها المؤسسات الأجنبية نصرا

عسكريا مؤقتا ومموها ضمانا لبقائها.

وما بليت الأمة في هذه العصور إلا بعمالة وخيانة القيادات.

ويستثني واقع التاريخ وضعا حكوميا واحدا في جزيرة العرب وهو الحكومة السعودية، فليس في أي بلد عربي قيادة تساوي أوتقارب الواقع التاريخي لهذه الحكومة، بل كانت أعرق الحكومات على الإطلاق، وقد وجدت قبل انحلال الخلافة الإسلامية في تركيا بما يزيد على قرن ونصف قبل أن يتفق الذئاب من الدول العظمى على التلاعب بكراسي الحكم والاستحواذ على ربائط تربيها يد الأجنبي.

كانت هذه الحكومة من قرية من صغرى القرى في نجد في مجتمع أمي عامي لم تمتد أساليب العمالة الأجنبية إلى فنائه ولم تمخضه حركات الغارة الفكرية، لأنها لم توجد في الساحة بعد.

قامت هذه الحكومة والخلافة الإسلامية قائمة في تركيا، ليس للأمم الكافرة أي سلطان على شرقنا، ولو وجد لها سلطان لكانت الحكومة في الجزيرة آخر من يفكر في مداهنته لأن النفوس مجبولة جبلة فطرية وراثية على كراهة الأجنبي لا سيما إن كان عدواً لله.

لم يصحب قيام هذه الدولة في مجتمع

فقير أمي تأييد أجنبي ولا يد أجنبية ولا تمثيل بين عواصم أمريكا وبريطانيا وروسيا وفرنسا، لأنه لم يقم لهذه الدول الكافرة سلطان، ولأن خلافة تركيا المسلمة في نحورهم.

إنها حكومة قامت في جوها التاريخي الطبيعي داعية إلى الإسلام وتنقية المجتمع من شوائب البدعة والوثنية التي تراكمت مع أحقاب الزمن، وليس لهذه الحكومة أي موجه فكري وافد لأنه ليس في أرفف القوم وفارغاتهم غير القرآن الكريم وكتب الفقه والحديث والتوحيد والآلة بأقلام كبار السلف لا يعرفون ولا يحسنون أصلا غير ذلك.

وظلت رقعة هذه الحكومة بين مد وجزر تمتد بدافع الحماس للعقيدة كما في عهد عبد العزيز الأول وابنه سعود.

وتنكمش بتسلط الخلافة الإسلامية في تركيا بدافع الغيرة كما في عهد الإمام عبد الله.

أو بعامل الخلاف والتشاحن بين الأسرة ذاتها كما في عهد أبناء الإمام فيصل بن تركي رحمهم الله.

وقد عادت جميع الرقعة التاريخية في عهد الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن وانتظمت القيادة بنفس الدستور ومنذ ذلك

التاريخ لم نجد وجها نشتبه فيه، والتعاقب على ولاية الأمر لم يكن من اللون الذي نرى فيه تصفية زعيم واستحياء قزم وإنما هو نظام تاريخي اختاره ولاة الأمر أنفسهم على نظام عريق سائد منذ قامت حكومتهم وظل يكتسب شرعيته في كل مرحلة ببيعة المسلمين وتنظيم علمائهم.

وإلى الآن — والله المرجو أن يعصم مستقبلنا — لم يُمل على شعبنا أي أيدلوجية وافدة، ولم يُعْتَدَ علي حرمة وحرية الدين الذي تمت البيعة لأجله منذ عهد محمد بن سعود، فالكلمة للإفتاء والقضاء والدوائر الشرعية العليا، ولا تزال الدولة — ولن

تزال إن شاء الله – جهة تنفيذ لدين الأمة وعقيدتها.

هذا واقع تاريخي لم ابتدعه وإنما نبهت عليه لأنه برهان حاسم على أن نظامنا مِنّا وإنما يُخشى علينا الاستسلام للغارة الفكرية التي سأشرحها في الوسيلة الثانية من وسائل التدمير الأجنبي.

لقد رأينا خلال التهافت على الكراسي في البلاد الأخرى أكثر من سحنة وأكثر من وجه وأكثر من أسلوب للخداع ولكن الذي بقي ولم يتغير هو العلمانية في فصل الدين عن الدولة وتربية الناشئة على الغربة عن دينها.

وبقاء الأمة خلال كل زعامة تطرأ عاجزة عن صنع إبرة !

والوسيلة الثانية : التسلط على أفكار المثقفين بحيل ثقافية تؤمم كل إيجابية فكرية.

يظهر ذلك بربط مداخل جميع العلوم بمناهج فلسفية غربية معاصرة حطمت كل معايير الفكر الصحيحة الثابتة من حسبانية واسمية ووضعية ووجودية وقسَّم هذه الفلسفة المعاصرة ملاحدة متسترون على يهوديتهم.

ولا ينكر البروتوكولات الصهيونية إلا مغبون العقل.

ويظهر ذلك بشكل أدق ذكاء وأعوص تعقيدا في أيدلوجية الأدب الحديث التي يتهافت عليها — بغريزة فطرية — معظم أجيال المثقفين.

وهذا الأدب الحديث بأيدلوجيته أصبح بريدا من برد الانسلاخ الفكري تحددت هويته من أحمق ظاهرات الجنون البشري من إيغال في الحسبانية والهيبية وتحطيم الثوابت وفرض المحال وتخدير العقل بجنون الخيال واستباحة كل محرم في سبيل إبداع أدب !!

وكأنموذج لذلك سباحة في بركة الشيطان للمسكينة غادة السمان فهو صورة

لهيبية الأدب الحديث.

وتسلم قيادة هذا الأدب عملاء الصهيونية والصليبية والعلمانية من جماعة حوار وشعر ومواقف!!

وكل هذه الوجوه الكالحة إما نصرانية وإما طائفية نصيرية أو درزية أو لا منتمٍ صرح بأنه يروث على قيم الشرق.

والمؤسسات الأجنبية تبذل في صنع الزعامات الأدبية والترويج لها مالا تبذله في صنع الزعامات السياسية!

والمثقف المسلم مطالب باحتضان الأدب الحديث من واقع هويته المبنية على

إيجابية الفكر لينقيه من الهيبية والحسبانية والقبح و يقيمه على أمتن مناهج الفكر وأمتع قيم الفن من واقع الفلسفة الجمالية.

كان الأدب الحديث أولا مجونا وكان باستطاعة فرد واحد كنزار قباني أن يربي أجيالا كثيرة على قلة الحياء!

أما اليوم فقد أصبح الأدب الحديث أيدلوجية فكرية موجهة ضد شخصيتنا وحريتنا ومأثورنا فاستطاع فرد واحد كأدونيس أن يصيب فكرنا العربي بالخبال !

وليست أدلوجية أدونيس وخالدة والخال

وغـالـي شـكـري بأقل خطرا من الأيدلوجية الفكرية التي جعلها ميشال عفلق النصراني واقـعـا حـيـا فـي أعـظـم قـلـعـة مـن قـلاع المسلمين!

٤ ـ الثوابت الفكرية

الفكر مادة حيوية خصبة، ومادة الفكر هي المادة التي وصلت إليه بالحس الظاهر كحقيقة المرئي أو الباطن كحقيقة الحزن.

المادة الفكرية هي المادة الحسية بلا نقص ولا زيادة، ولكن معرفة الفكر من هذه المادة أخصب وأوسع، لأن الفكر بملكة الخيال يركب من مادة الحس عوالم لا وجود لها في الواقع بهذا التركيب وإن كانت عناصر التركيب جزئيات حسيةو لا يمكن أن يقيم العقل تصورا بغير جزئيات حسية.

والفكر بملكة قوانينه الفطرية المطردة مع

ثوابت الحس يصل إلى معرفة مالم يتم الإحساس به بعد كمعرفته بوجود الجن بناء على براهين مركبة من وقائع حسية وقد دلت شواهد الحس على أن مادلت عليه هذه البراهين فهو ضروري واقعي.

والفكر بمختلف ملكاته يتسع لشتى الاحتمالات والتصورات والفرضيات بناء على عمله الخصيب في الوقائع الحسية.. وكل هذه الافتراضات والاحتمالات والتصورات قابلة للتطور والتغير ولكنها لا تسمى حقائق حتى تستقر وتثبت وهي لا تستقر ولا تثبت إلا إذا أوجب حكمها أحد قوانين الفكر الثلاثة الثابتة وهي:

١ ـــ الهوية : كل ما كان هو فهو هو.

مثال ذلك : طرفا الخط المستقيم لا يلتقيان.

فهذه قضية فكرية حسية ثابتة، لأنه لو التقى طرفا الخط أصبح الخط غير مستقيم.

إذن الحكم باق ما بقيت الهوية.

٢ ـــ العلية والسببية وهي ربط كل حادث بمحدث، فكل وقائع الحس مطردة مع هذا القانون.

٣ ـــ الثالث المرفوع وهو قضايا مطردة في مشاهدة الحس لم تنخرم بأي مثال منذ

وجد العقل البشري كنفي اجتماع شيئين معا أو ارتفاعهما معا إلا بأحد ثمانية شروط منها اختلاف الزمان والمكان.. إلخ، وبشرط أن يكون الاجتماع أو الارتفاع على حقيقة الكلام دون مجازه كقولنا محال أن يكون زيد موجودا وغير موجود في داره الخميس الساعة الخامسة من مساء يوم الاربعاء الموافق ١٤٠١/١٢/٢٣هـ وكل قضية فكرية ثابتة في مختلف العلوم والنظريات إنما هي ثابتة بهذه القوانين.

وقد حاولت بعض المدارس الفلسفية الصهيونية الموجهة اللعب بهذه المبادىء التي تقوم عليها جميع الحقائق بيد أن قوانين العلم

التي بنيت عليها اكتشافات العلم الحديث رفضت هذه السفسطات فلم يهتد أي مخترع إلا في ظل ثوابت العقل المسبقة.

وبناء على إيجابيات الفكر وثوابته وجدت عند المسلم ثوابت لا يمكن أن تُطور مع الزمن وإنما تتطور حياة المسلمين معها في كل عصر ومصر.

فحرمة الربا من الثوابت التي لا مجال للاجتهاد فيها وإنما الاجتهاد في معرفة هذه المعاملة هل هي ربا أم لا فإذا عرف أنها ربا فحكمها ثابت وهو الحرمة.

ومثل ذلك القصاص حكم ثابت لا

يتغير. أما من قال أصبح الناس اليوم حضاريين فلا معنى للإعدام فإنما يخلون بإيجابيات فكرهم لمكابرة الثوابت التي لا يستقيم أي دين أو انتماء بدونها.

إنما التطور يكون في أعمال البشر التي يعرفون بها الوقائع فيطبقون حكم الشرع كتقدم وسائل المعرفة البشرية في اكتشاف الجاني فيطبقون به حكم الشرع.

و يكون التطور في تقدم المعرفة البشرية تقدما يعرفون به مدلولا شرعيا كثر فه الاختلاف بين علماء المسلمين فربما أفاد المفسر اليوم من عالم الجيولوجيا والطب والفلك إفادة قطعية يرجح بها المدلول من

النص الشرعي الذي اختلف فيه العلماء.

و يكون التطور في كيفية استثمار حكم الشرع والانتفاع به كالسعي إلى إسعاد الأمة ورفاهيتها فهو أمر مندوب إليه في الشرع حسب الطاقة فإذا وجد لدى الأمة وسائل علمية تحقق سعادة دنيو ية للأمة لم تؤثر من قبل فذلك تطور في استثمار أحكام الشرع.

وإذا تحررت الأمة من أروقة الدراو يش وتصوراتهم فذلك تطور في حياة المسلمين وليس تطورا في دين المسلمين لأن الدين بمفهومه النصي يرفض الرهبنة فليس هذا

التحرر تطويرا للدين وإنما هو تطور مستمد من الدين.

وإذا تحرر علماء المسلمين من الجمود على كتب الفروع المذهبية في الفقة ورجعوا إلى الاجتهاد في فهم النص فليس ذلك تطورا في النص وإنما هو تطور في عقلية علماء الإسلام .

٥ – الاطرادات الفكرية

من خصائص الهوية الإسلامية بمفهوم نصي أن المسلم منظم التفكير مطرده، وإذا لم يطرد تفكير الفرد تناقض وارتد عن إيجابيات فكره.

وإيجابيات الفكر ترفض الإيمان ببعض والكفر ببعض، ولا بأس بالمثال هاهنا:

فمن مسلمات الفرد المسلم التي أوجبها تفكيره:

الإيمان بأن الله حق، وأن له الكمال المطلق، وأنه منزه عن الكذب.

والإيمان بأن هذا القرآن بين دفتي

المصحف من عند الله حق لا مرية فيه.

هاتان المسلمتان توجبان أن الجن حقيقة وجودية ثابتة بالكيفية التي ذكرها القرآن وإن لم نرها.

هذا هو اطراد الفكر.

فإن قال الفرد: الجن خرافة وأكذوبة فقد ارتد عن إيمانه بأن الله منزه عن الكذب وأن القرآن من عنده.

ولا ينفعه بعد هذا إيمانه بأي حقيقة شرعية لأن الإيمان بصدق الله وأن القرآن من عنده مسلمة مطلقة لا تقبل التجزئة.

ولهـذا كـان دور الإسـلام فـي الأمـة الهيمنة لا التتميم والترقيع:

ولـيـس من منهج المسلم أن يصدق ربه مـرة و يـكـذبـه مرة، لأن مبدأ التصديق من الثوابت في تصورات المسلم.

ومـن صـدق ربـه مرة وكذبه مرة فمعنى ذلـك أن الله جل جلالـه لا يـكون صادقا دائما وهذا هو الكفر.

٦ ـ الحتمية الفكرية تابعة للحتمية الكونية

يفخر المسلم بأنه عبد الله، و يشرف الله رسله وأنبياءه وحزبه بالعبودية.

والمخدرون بشعارات المؤسسات الأجنبية منذ صار الشرقي يأخذ مؤهله العالي من أستاذ جامعة صهيوني أو صليبي أو علماني صاروا يصيحون بلا وعي منادين بالتحرر من الشرع وقيوده فالدين لله والوطن للجميع وحدود الشرع يجب أن لا تقام وصيانة المرأة مرحلة تاريخية ظالمة!!

وهؤلاء تحرروا من عبوديتهم لشرع الله بإرادتهم لتقوم عليهم حجة الله!

ولكنهم عبيد لتدبير الله الكوني على رغمهم شاؤا أم أبوا؛ فليس لواحد منهم أدنى علم مسبق بمجرى الأحداث في دقيقة واحدة من حياته، وليس لأحدهم أدنى اختيار بأن لا يموت أو لا يهرم أو لا يمرض أو لا يحزن أو لا يفتقر أو لا يكون ذا عاهة.. إلخ.

إن الخلق كلهم – مؤمنهم وكافرهم – عبيد الله كونا لا مفر لهم ولا مهرب من تدبير الله الذي رتبه بعلم مسبق.

إلا أن الكافر – عبد الله كونا – انعتق من عبودية الله شرعا فأقدم على عصيان ومحادة من لا يملك التحرر من قدره

الكوني، فلو عقل الكافر لعلم أن الذي أضرع خده في الدنيا لقدره الكوني هو القادر على أن ينفذ فيه عدله في دار الجزاء.

أما المؤمن فقد رأى نفسه تحت تدبير الله في كل تصرفاته الكونية فعلم أن عبوديته لشرع الله حتمية فكرية، لأن المدبر بشرعه هو المدبر بكونه، ورأى أن رأس ماله دنيا وآخرة هو العبودية لله من جميع الوجوه.

ورحم الله عباده فلم يكلفهم بشرعه مالا يطيقون، وذخر لهم الأجر لما يصيبهم من آلام وأضرار ومصائب وتلدد مآرب كانت نتيجة لقضاء الله الكوني فيهم إن

هم صبروا واحتسبوا.

ومن هذا التلازم بين الحتمية الشرعية والحتمية الكونية في عقيدة المسلم نَعِم المسلم بوعد الله الذي وعد به عبيده الصالحين بأن يحييهم حياة طيبة.

فكانت حياة المسلم حياة طيبة سعيدة راضية في الأمن والخوف والفقر والغنى والصحة والمرض لا يعرفون القلق ولا توتر الأعصاب ولا بدعة الانتحار قد انعتقوا من عبودية الوهم والخوف والمال والطواغيت وتحرروا بعبودية الله جل جلاله عن كل سلطان ليقينهم بأن حزب الله هم الغالبون.

ومن هذا التلازم بين هاتين الحتميتين

واجه المسلم حياته بعقل ليس فيه تهور العاتبين على القدر ولا تكاسل المتكلين على القدر من الدراويش بل كانوا يستعينون بعبوديتهم لله على مصائب دنياهم و يتعاطون الأسباب التي شرعها دينهم لأنهم يعرفون أن الله يدفع بعض أقداره ببعض أقداره.

ومن التلازم بين هاتين الحتميتين كان المسلم ينظم موقفه بين عبوديته لله كونا وعبوديته له شرعا على هذا النحو:

١ — الإيمان القاطع بأن كل ما يملكه من حرية فردية في إرادته ومقالته وفعله إنما هو هبة من الله (وما تشاؤون إلا أن يشاء

الله) ولهذا يحاذر من استعمال هذه الحرية في عصيان الشرع لعلمه أن الله إنما يحاسب عبده وفق قدرته.

٢ ـ طموحه دائما لتوسيع هذه الحرية لتكون له عونا على العمل بطاعة الله وإعداد القوة للأمة ويكون هذا بالتقرب إلى الله بالطاعة والتضرع إليه في السر والعلن والبراءة من كل حيل وقوة إلا به.

وفي تجربة المسلمين جماعات وأفراداً استثمارات عاجلة مشهودة، فعقيدة المسلم أن الله يُتمم مسيرة عباده الصالحين.

٣ ـ عدم التفريط في كل ما ملكه

الله الفرد من سبب ووقت وحركة وفكر لاستثمار أكثر ما يمكن دينا ودنيا، امتثالا لأمر الله الشرعي القاضي بالعمل.

وإناطة الأمل بالله في تحقيق الهدف امتثالا لأمر الله الشرعي القاضي بالتوكل، وعدم الأسف والسخط لتخلف الهدف أو حصول ضده إيمانا بقضاء الله الكوني وإيمانا بوعد الله الشرعي أن الله يختار لعبده الخير من حيث لا يعلم العبد ذلك.

٤ ــ ملاحظة العناية الإلاهية في كل ما يحصله العبد من خير وانتظار الحكمة الإلهية في كل مايحصل له من أسى وبهذا لا ينعتق العبد من العبودية لله وحده في

كل لحظة سواء أكان يضرب بمسحاته محترفا أم كـان عـلـى كرسي السلطة آمرا ناهيا أم كان على فراش المرض.

لقـد بيـنـت فـي الحـديـث عـن سيادة الـنـص مـعـادلـة بين الـعـبـادات والمعاملات وبـقـيـة الـشـئـون الـدنـيـو ية التي فوض الله سيـاسـتـهـا لـوسـائـل الـبـشـر الحـسية وحرفتهم ومـهـارتهـم ونظرهم وخبرتهم التي اكتسبوها بالتجربة.

إذن الأمـة لا تـسـتغني عن أهل الخبرة والـنـظـر مـن غير عـلـماء الـشـر يـعـة ومن هنا وجـب أن يـكـون لـلأمـة مجـلـس مكون من عـلـماء الـشـر يـعـة ومـن مختلف ذوي الخبرة

يعينون الحاكم في تصريف الأمور و يكون لتوجيههم إيجابيته.

ونظر هؤلاء المصطفين إنما هو لتطبيق الشرع لا لتأسيسه فهجرة العقول والمهارات إلي بلاد العدو وراء المغريات إضرار بمصلحة الأمة ليس بأقل خطرا من تهريب السلاح فإذا جلس المصطفون لرسم خطة لاستثمار المواهب الوطنية وحظر هجرتها فإنما يقننون لتطبيق هدف شرعي لأن من هدف الشرع التعاون على البر والتقوى وإعداد القوة للأمة.

وإيداع أموال المسلمين في بنوك الأعداء وتعريضها للجحدان والنكران فتك بالأمة

قد لا تحققه غارة عسكرية فإذا أتيح لأولئك المصطفين وفيهم رجال الاقتصاد حق النظر في كيفية استثمار الفائض من أموال المسلمين فإنما يسعون في ذلك إلى تطبيق حكم شرعي، لأن من أهداف الشرع إعداد القوة للأمة وأن لا يكون للكافر سلطان على المؤمنين، وتسليم المال للعدو وائتمانه عليه خيانة للأمة وإضعاف لها وإعانة للعدو.

٧ – سيادة النص وحـــق التفكير

من عناصر الهوية الإسلامية العبودية المطلقة لله في شرعه وتحكيم مراده وإلغاء كل ما عارضه: أي سيادة النص الشرعي في حياة الأمة.

وهذا العنصر ثمرة حتمية مباشرة لما سأذكره عن موقف المسلم من خبر الشرع وهو التصديق المطلق.

ولذلك أمثلة ولا بأس من تناول أحدها:

ورد النص الشرعي بقطعية في دلالته وثبوته على أن المرأة أقل إرثا من الرجل وأن للذكر مثل حظ الأنثيين.

وليس من خلق المسلم أن يلتمس أي معقولية لدعوى مساواة الرجل بالمرأة في الإرث وليس من خلقه أن يساوم في شرع ربه القاضي بالتميز بأي حوار نظري، لأن هذه المساومة النظرية تعني الشك في عدالة الحكم الشرعي وفي معقوليته، وهذا بخلاف أولية المسلم وهي اليقين بعدل الله وصدقه وحكمته .

وما دامت المسألة مسألة منهج ومبدأ فالمسلم قد أخذ من إيجابيات فكره أن الله حق خلق كل شيء وله التدبير المطلق منزه عن العبث والجور والكذب والسهو والجهل.

وعرف من إيجابيات فكره أن ابن آدم

مخلوق محدود بظروفه فيما بين رحمة المهد ووحشة اللحد يعتريه في جميع لحظات حياته السهو والخطأ والجهل وتتحكم فيه نوازع الجور والكذب.

ومن الإيجابيات الأولى عرف إيجابية ثانية وهي أن الله هو الأحق بالعبادة والطاعة.

ومن كل تلك الإيجابيات عرف إيجابية ثالثة وهو أن الله خالق الخلق أعلم بما يصلحه وقد جعل الله شرعه لصلاح عباده، فالشرع أولى بصلاح الخلق.

وما دامت هذه هي إيجابياته الفكرية

فيجب أن تطرد في كل لحظات حياته فلا يرتد عليها لحظة واحدة.

إذن المسلم غني عن إقامة البرهان على معقولية وعدالة الشرع في التميز بين الذكر والأنثى في الإرث، لأن من قضت الإيجابية الفكرية بكماله لابد أن يكون كل ماصدر عنه حقا وحكمة هذا هو المقتضى المنطقي لاطراد الفكر.

نعم إن المسلم يقتصد بفكره في أمور شرعها الله وأوجبها و يأخذ بها تسليما مطلقا لأن الأخذ والتسليم ثمرة التصديق الأولي.

والمجتهد المسلم له موقفان دائما :

الموقف الأول: بيان الحكم الشرعي لأبناء ملته كأن يقول للعامة حكم الله أن تأخذ البنت سهما و يأخذ الابن سهمين لقول الله تعالى: وللذكر مثل حظ الانثيين.

يقول هذا ولا يزيد لأن كل أبناء الملة الإسلامية على يقين بعدالة حكم الله وإنما مبتغاهم معرفته.

والموقف الثاني: تزييف الشبهة لأن شرع الله كما تقرر في إيجابيات الفكر واطراده فلابد أن يكون خلافه هو الضلال لأنه ليس إلا حق أو باطل ولا ثالث بين ذينك.

وفي تزييف الشبهة يجب أن يحاور المعارض في تصحيح إيمانه فيرده إلى معاودة الإيمان بالله جملة وتفصيلا أو الإصرار على الكفر بالله.

فإن آمن بالله حتم عليه إيمانه التصديق بشرع الله تفصيلا.

وإن صمم على الكفر فلا ينفعه البرهان الخاص بأن تمييز الشرع بين الذكر والأنثى في الإرث هو الحق والعدل.

فإن أقام المسلم البرهان الخاص على عدالة ومعقولية الحكم الشرعي في الإرث لأبناء ملته أو لغيرهم فذلك من باب

النوافل وليس من اللوازم بل أعظم برهان للمسلم أن تقول له: قال الله، أو قال رسوله.

واعلموا أن البرهان دائما مع تفصيلات الشرع ولنحاول الآن أن نطرح للبرهنة الخاصة موضوع الإرث فنجعل البرهان من سبعة مواقف:

الموقف الأول : أن من يدعو إلى التسوية بين الأخ والأخت في الإرث لم يورد برهانا سوى دعوى المساواة.

ودعوى المساواة مطلقة شعار فارغ وإنما تكون قضية فكرية — أي ذات مضمون

- إذا وجد مقتضاها وهو أن يكون المحلان اللذان يطلب لهما حكم المساواة غير متمايزين.

فليس من العدل أن تساوي بين أجيرين يعملان لك ساعة من نهار في عملين مختلفين أحدهما عادي يعرفه كل أحد وثانيهما فني لا تعرفه إلا مواهب نادرة تغربت طويلا وغرمت وتعبت في إتقان هذه الحرفة.

وهكذا حقوق الرجل والمرأة في شرع الإسلام لو جمعناها وتقصيناها لرأينا أن تمييز الابن على البنت في الإرث جاء بمعادلة حكيمة وأن نقصان حظ البنت

هاهنا مكفول العوض عنه في جانب آخر كإيجاب نفقتها على زوجها وولي أمرها.

والموقف الثاني: ليس في دعوى أي مجتهد مسلم أنه محيط بجميع حكمة الله وعدله في شرعه بل لا نعلم إلا ما علمنا الله إياه إلا أننا على يقين بكمال شرع الله تبعا للإيمان بكمال الله.

والموقف الثالث : لو افترضنا فرضا باطلا — وهو فرض لا يكون في الواقع أبدا — أن الأخت مغبونة الحظ في حطام الدنيا من الإرث، إلا أن المسلم لا يقيم جميع معادلاته على حظوظ الدنيا، بل المعادلة الحقيقية تقام على حظوظ الآخرة

لأن الفرد مهما طال عمره عابر سبيل.

فطاعة حكم الله والتورع من الاعتراض عليه من الأسباب لنيل حظوظ الآخرة الأبدية.

والموقف الرابع : ليس الإرث حقا للرجل وإن كثر ولا للمرأة وإن قل إلا حيث جعله الله حقا.

وبيان هذا الموقف من وجه آخر أن بني آدم خلق الله وملكه خلقهم على سنة كونية لا يملك أحد تبديلها فجعل منهم الذكر والأنثى والسليم وذا العاهة والغني والفقير والعاقل والمجنون وطويل العمر وقصيره.

والله الـذي خلق الخلق على سنة كونية متـفاوتة هو الذى جعل بعض شرعه متفاوتا فيما بـينهـم فكمـا لا يمـلـك أحـد أن يـكـون لـلإنـسـان عين فـي قـفـاه بـدلا مـن عـينين قـدامـه، ولا يمـلـك أن تـكـون لـيـلى زيداً كذلك لا يملك التعديل في الشرع.

ولا يمـلك أحد حق التشريع حتى يخلق خـلـقـا سـويـا ويـعـلـم وسـاوس صـدورهم ويـعـلـم بـدايتهـم ونهـايتهـم ويـقدر أرزاقهم وحـظـوظـهم فإذا خلق هذا الخلق فله حرية التصرف فيه؟!

والمـوقـف الخـامس : على فرض أننا لا نملك حجة نظرية على أن تمييز الرجل في

الإرث هو العدل بغض النظر عن براهيننا على كمال الله إلا أن المعارض لا يملك نظرية مقبولة على جور الحكم لسبب وحيد هو أن الله لم يكل أرزاق عباده إلى مواريثهم بل هو موجد الإرث ذاته ومصرف الأرزاق من غير الإرث بتقدير لا يحصي حسابه ولا يعلم مخارجه أي مخلوق.

والموقف السادس : أن الذى مايز في الإرث بموجب تدبيره الشرعي هو الذي أوجب بتدبيره الشرعي كفالة البنت على الزوج والابن والجد والعم وابن العم والعاقلة وبيت المال وهو الذي ضمن بتدبيره الكوني رزقها ما بقي لها أجل.

والموقف السابع : أن التفاوت في الإرث نوع من أنواع التفاوت في الرزق.

وتفاوت الرزق ليس مقياسا للعدالة في الشرع وإنما المقياس في تفاوت الدرجات يوم القيامة في دار الجزاء ذلك أن علم الله المهيمن وحكمته المطلقة هما اللذان يفسر بهما عدله.

ولا يملك محاكمة الله في عدله إلا من أحاط بعلم الله وحكمته وأنى أن يحيط المحدود باللا محدود تعالى الله علوا كبيرا.

وعلى هذه المسلمة قول الله تعالي: لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

إن التميز بين حق الله في التشريع وحق العبد في الاجتهاد عنصر من عناصر الهوية الإسلامية، وقد قدمت الأنموذج لحماية حق الله في التشريع وبقي علي هاهنا بيان المقياس الفارق بين حق التشريع وحق الاجتهاد، وهذا المقياس يبين من تحديد موقف المسلم من النص الشرعي وهو على ثلاثة أنحاء:

١- النظر هل هذا النص نص شرعي؟.

٢- النظر هل هذا المدلول من هذا النص هو المدلول لشرعي؟.

٣ــ النظر هل هذا المدلول الشرعي من ذلك النص الشرعي هو المقتضى الصحيح الواجبة طاعته؟.

فمن ناحية النظر الأول وهو التحقيق هل هذا النص نص شرعي أم هو نص مدسوس على الشرع: فمهمة لا يُعفى منها المجتهد المسلم بموجب ما أسلفناه عن الإيجابية الفكرية، وحتمية أوجبتها الدينونة لله سبحانه وتعالى، لأن الله لا يعبد إلا بما شرع، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد.

ومن الإيجابيات الفكرية يتخذ المسلم قوانينه في ميدان التوثيق التاريخي الذي يميز بها الشرع وغيره.

فكل تشريع ليس مصدره القرآن أو السنة فليس هو شرعا إسلاميا فلا تجب طاعته.

وكل نص نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام اليقين أو الرجحان على أنه لا يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم فهو ليس شرعا ولا تجب طاعته.

ومن هنا وجب على المسلم التحرر من البدعة والخرافة وكهنوت الصوفية والدراويش.

وإذن فتوثيق النص مما يجب فيه اجتهاد علماء الإسلام.

وأما النظر الثاني وهو التحقيق في هذا المدلول هل هو المدلول الحقيقي للنص فمهمة لا يعفى عنها فقهاء المسلمين وقد أنفق الأصوليون وجمهور الفقهاءأعمارهم في مختلف الأعصار والأمصار لبيان دلالة النص.

ولا بأس هاهنا من تلخيص برنامج بديهي موجز عن هذا القانون، وهو أن النص الشرعي يُحمل على المصطلح الشرعي ككلمة الصلاة ولا يصرف عن المصطلح الشرعي إلا ببرهان، فإن لم يوجد اصطلاح

شرعي حمل على المجاز الغالب استعماله ككلمة (أف) يراد بها أقل الأذى وإن كان معناها الحقيقي حكاية صوت.

فإن لم يوجد مصطلح شرعي ولا مجاز غالب الاستعمال حمل على معناه الحقيقي في لغة العرب ولا يحمل على مجاز غير غالب الاستعمال إلا بشرطين:

أولها : أن يكون هذا المجاز صحيح الاحتمال في لغة العرب.

وثانيهما : أن يكون هذا المجاز الصحيح دل على تعيُّنه برهان من سياق النص أو من خارجه بيقين أو رجحان.

وما قام البرهان بيقين أو رجحان على أنه ليس مفهوما من النص الشرعي الصحيح الثبوت فليس شرعا ولا يجوز التعبد به، ولهذا قال ملحد المعرة أبو العلاء:

وكم من فقيه خابط في ضلالة
وحجته فيها الكتاب المنــــزل

إذن تمحيص دلالة النص مما يجب فيه اجتهاد المسلم.

ويلاحظ أن اختلاف ترجيحات المسلمين بين الدلالات المحتملة سعة لهم في الاختلاف لأنهم غير مكلفين باليقين في ذلك وإنما هم مكلفون بما يترجح لهم بشرط

صلاح النية والصدق مع الله في طلب الحق كما بينت ذلك في المدخل لهذه الضميمة.

وهناك نصوص محتملة الدلالة ولا يسع المسلم التحقيق في دلالتها ليمحص مدلولا يرجحه بل هو ملزم أن يرد المدلول إلى قطعيات الإسلام وضروراته وأصوله التي تقررت بدلالات ليس فيها احتمال.

مثال ذلك حديث أن الله خلق آدم على صورته فهذا محتمل الدلالة ولكن برده إلى قطعيات النصوص يكون مدلوله الصحيح أن الله خلق آدم على صورة آدم التي هو عليها.

وكذلك النص بأن عيسى روح الله محتمل الدلالة ولكن بِردِّه إلى القطعيات يكون مدلوله الصحيح أَن روح عيسى روح الله إضافة إلى خالقها ومالكها وليست بمعنى الجزئية.

ذلك أن النصوص القاطعة ثبوتاً ودلالة تواترت على أن الله ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد فوجب رد كل جزئية إلى هذه القطيعة.

ومن البديهي أن في جميع اللغات والمصطلحات والقوانين نصوصا جزئية ذات احتمالات ترد إلى مفهوم واحد بموجب ضرورات ومسلمات.

وأما النظر الثالث فهو التساؤل هل هذا المدلول الصحيح من ذلك النص الشرعي هو المقتضى المعقول الحكيم العادل الصادق الذي تجب طاعته أم لا.

ولا ريب أن هذا النظر كفر مخرج من ملة الإسلام، ذلك أن المجتهد في المرة الأولى اجتهد ليعلم هل هذا النص من الشرع فيطيعه أم هو غير الشرع فلا يلتزم له.

وفي المرة الثانية اجتهد ليعرف هل هذا المدلول هو مراد الله فيلبيه أم هو غير مراد له فلا عليه الالتزام له.

وفي هذه المرة علم أن هذا النص من

كلام الله، وعلم أن هذا المدلول هو مراد الله فوجبت عليه الطاعة لمراد الله.

فإن شكك في معقولية مراد الله فقد ارتد عن إيمانه بكمال الله وقد بينت لكم الأنموذج من قضية وجود الجن وتمييز الله للذكر في الميراث.

هذه هي المعادلة في موقف المسلم تجاه حق الله في التشريع وحق العبد في الاجتهاد، ويتفاوت رجحان أحد هذين الجانبين بحسب المواضع ففي ميدان العبادات والمعاملات فالسيادة لنص الشرع ودور المسلم في الاجتهاد إنما هو فهم مراد الشرع وتمييزه دون الاقتراح عليه أو تبديله

أو الزيادة عليه أو النقص منه.

وفي ميدان احتيال المرء على أمور دنياه لجلب الرزق وتحقيق القوة والسعادة للأمة فالمجال مجال الفرد بعقله وحسه وحركاته وتجاربه ليستثمر حياته ولا ينتظر من الشرع أن يعلمه كيف يزرع وكيف يصنع الحذاء وينسج الثياب ويكتشف بعض قوى الطبيعة ويرسي مختبراته ومعامله، بل خلق الله للفرد ذاكرة تعي وعقلا يميز ويحكم وعينا ترى وأذنا تسمع وحركات لطيفة تنتج الحرفة والمهارة ودفعه ربه دفعا بتدبيره الشرعي لاستثمار هذه المواهب في عمارة الأرض والإعداد للأمة.

وبجال التشريع هنا مجال عمومات وتوجيه غير مباشر على هذا النحو:

١ــ أن كل ثمرة لمواهبه في عمارة هذه الأرض يوظفها للخير لإسعاد المجتمع وإعداد القوة لحماية حرية الأمة وكسر سلطان الطغيان والتكالب على الدنيا.

٢ــ أن استثمار هذه المواهب حق المرء في دنياه (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وللمرء أن يستثمر معظم وقته لهذا الحق ولكن لايجوز له أن يضيع حق الله الذي لا يستأثر إلا بأقل القليل من الوقت.

بل جعل الله من ضرورات المرء في

حظوظه الدنيا ضرورات يخفف بها من واجب الشرع فليس على المرء صلاة الجماعة في لحظة يخاف فيها على ماله أو ضياع دابته وليس عليه الصوم في سفر يسعى فيه لأمور دنياه فقد أخذ الله من عسر المرء إلى يسره ولم يكلفه فوق طاقته.

٣– أن الدنيا في تصور الشرع – وهو التصور الصحيح الذي يشاهده اللاهون من واقع حياتهم – دار ممر مهما طال عمر المرء فيها فهو مجرد عابر سبيل، وأن الآخرة هي دار الأبد.

ومن هذا التصور انبثق موقف الإسلام من اللهو والزينة والبذخ والرفاهية والميوعة

فلم يحف الإسلام على فطرة الفرد فيحرمه من كل لهو ورفاهية ولم يحف على مذخوره في دار الجزاء فيستحثه على كل لهو وزينة.

بل جعل الله فيما أباحه للفرد من لهو وزينة ورفاهية سعة له من جديات حياته لينشط على مواصلة الجد.

فإن راض نفسه على الجد وكانت متعته في تقشفه فهو من المحسنين، وإن تداوى برخصة الله فأخذ منها بقدر مايعينه على العزيمة فهو من المكتفين ليس عليه إثم وليس له أجر المحسنين، وإن استباح هذه الرخصة بأكثر من مقدار الضرورة ولهى بها

في حياته فهو من عباد الهوى الساهين اللاهين.

هذا هو موقف الإسلام من اللهو والمتعة والرفاهية أما إن تعدت الرفاهية إلي البذخ والسرف فذلك هو الطغيان والكبر ياء الذي يجرح عقيدة السلم.

وللإسلام موقف معاكس تماما تجاه إعداد القوة وعمارة الأرض فإذا كان على المسلم أن يتخلى عن المتعة مادام يقدر فعليه أن لا يتخلى عن الكدح ما دام يقدر.

ليس غرض المسلم أن يكدح في عمارة الأرض وإعداد القوة لينعم بذلك في حياته فحسب، وإنما هدفه أن تظل أمته قو ية وإن

كان على فراش الموت ولهذا يبذل المسلمون مهجهم في القتال في سبيل الله ويحرصون على الشهادة.

وللأسف فهذا المفهوم النصي لم يكن مفهوما تاريخياً في اللحظة الراهنة لأننا أخذنا باليمين من تحت (بتهوفن) كل شيء ولم نأخذ من (أينتشاين) و (يوري جاجارين) أي شيء!

إن الأمة العربية تبذل في صرعة دحرجة الكورة من المال والعتاد والوقت والمواهب مالا تبذل شمامة منه في التدريب على الإمساك بالمدفع .

٤ــ توجه مفهومات الإسلام وقت المسلم وجهده إذا تضايق إلى تقديم الأهم على المهم.

٥ــ في دين الله ومضات عن قضايا ومفهومات كونية جاهزة فإذا استثمر الفرد المسلم مواهبه الحسية في اكتشاف بعض قوانين الكون اهتدى إلى عصمة خبر الله وصدقه وقد أُفردت مؤلفات خاصة بالاكتشافات الكونية التي سبق بها خبر الشرع.

إن مجموع الأمور الدنيوية التي هي استثمار لمنافع الكون بمواهب الحس مراد شرعي لأن النصوص أمرت بالاعتبار

والتفكر والضرب في الأرض وإعداد القوة إلا أن الفرد المسلم قبل أن يتحدد مجاله الدنيوي يأخذ مبادئه ونظرياته من مفهومات الإسلام.

لا يأخذ من الإسلام تعليما بحرفته وإنما يأخذ الهدف والغاية لحرفته فينطلق بأبعد غاية في استثمار عقله وحواسه ولكن في إطار التصور الإسلامي الصحيح والخلق الفاضل.

وبمعادلة قريبة نرى الدول الصليبية تتبجح بحسن المعاملة والمثالية اتباعا لتعليمات المسيح عليه السلام ثم نجدهم شر الناس تعاملا مع الشعوب في ميدان

السياسة وأسوأ الناس استخداما للعدة والعتاد يمتصون خيرات الشعوب و يسعون إلى خلخلة فكرهم بينما نرى المسلمين في قوة تاريخهم أكثر الأمم مثالية في العلاقات الدولية يهدون الأمم البربر ية إلى الخير فإن بقوا على دينهم تركوا لهم حر يتهم ولم يطمعوا في ممتلكاتهم وصار للعاجز منهم حق في بيت المال وإن رضوا بدين الإسلام أصبحوا كأي واحد من المسلمين في الحقوق والواجبات.

٨ ــ المعادلة الشرعية

مما يلهج به الضعفاء المهزومون روحيا وماديا الهذر بمنجزات العلم الحديث والوصول إلى القمر مع انشغال المسلمين بقال أبو هريرة وقال الشافعي.

فأما أن المسلمين متخلفون ماديا فهذا أمر لا مجال للمكابرة فيه وبعضهم لا يزال من الأمم المتخلفة لم يصل إلى حد التصنيف في الأمم النامية.

وأما أن تعلقهم بدينهم هو السبب فهذا في الواقع هو الفتنة الثقافية التي استطاع الغزو الفكري استمراءها على ألسنة العامة وترسيتها في الأذهان.

فهذه الأمم القوية التي شددت الحصار على المواهب العربية والإسلامية في كل حقل علمي جندت مؤسساتها الفكرية التي تعمل وراء الكواليس لإصابة العقلية العربية بالخبال من جراء تخلف الشرق وتفوق الغرب مع مافي ذلك من التشفي والتعيير.

ثم جندتها ثانية لإصابة العقلية العربية باليأس والفشل والهزيمة حين ربطت تخلف الشرق بروحانية الشرق لتحول بينها وبين السبب الحقيقي لفعاليتها.

وأغلب من يكتب عن تاريخنا الحديث المهزوم يكتب في دائرة هذه التصورات.

وجلاء هذه الثعلبية المموهة أضع عدة نقاط إن روعيت فهي كفيلة بإعطاء التصور الصحيح.

فمما يلاحظ أن تفوق الغرب إنما هو في الأمور المادية وهي أمور تبدأ بالفكر ثم بالتجربة الحسية من اكتشاف قوانين الكون ثم يظل المكتشف العلمي حرفة يقوم على المهارة و يعرف بالتلقي.

وقد بينت في الحديث الذي أسلفته عن سيادة النص أن شرع الله ترك للفرد حرية الاجتهاد في حرفته ومهارته وحثه حثا أكيدا على استثمار مواهبه العقلية والحسية.

فتخلف المسلم عن الحرفة والمهارة لا سيما ما يحقق قوة الأمة وعتادها تقصير يحاسب به المسلم لأن الله منحه عقلا وحسا وخلق له مادة يعمل فيها حسه وعقله، وما حرم الله عليه الانغماس في اللهو إلا ليقوم بشئون دينه ودنياه.

وإن صنع السيف وصنع القنبلة الذرية سيان من ناحية موقف الشرع فليس في الشرع تعليمات لاتقان الحرفة والمهارة في صنع السيف والقنبلة، ولكن الشرع يحفز إلى تعلمهما بالوسائل الكونية التي ملكها الله الفرد مادامتا تساهمان في إعداد القوة للأمة.

نعم الإسلام يأمر بإعداد القوة وتعلمها ويحث على ذلك فإذا وجدت القوة في يد المسلم فالإسلام حينئذ يحكم تصرفها فالسيف والقنبلة سيان لا يجوز استعمالها إلا فيما أباحه الله في نصر الحق وقمع الباطل.

ويلاحظ أن معظم المسلمين اليوم من النوع الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغثاء السيل فيهم البدع والخرافة والجهل والفرق والطوائف، وإذن فقد عدم في الساحة اتفاقهم على مفهوم نصي واحد فكيف يكون هذا العامل سببا لتخلفهم ووجوده مجرد دعوى.

إذن المنطق الصحيح أن تخلف سيادة المفهوم النصي في حياتهم هو سبب تخلفهم وليس معنى ذلك أن المفهوم النصي يعلمهم صنع الذرة وإنما معنى ذلك أن المفهوم النصي يحظهم على التفوق دائما ولا يرضى لهم الإسلام إلا القيادة ولا يقبل الحاكمية — في مقتضاه الشرعي — إلا بواسطتهم.

والله لا يكلهم إلى حيلهم وقوتهم وعددهم ومددهم وإنما طلب منهم الصدق والتضحية والفداء ثم يتمم الله مسيرتهم بشتى وسائل الإعجاز التي لم ينقطع مددها منذ معركة بدر الكبرى.

الإسلام كما هو سيادة لمراد الله في

العبادات والمعاملات نجده إعداداً صحيحا ومنهجا صارما للإعداد للحياة والتفوق فيها بشرط إرادة الخير والدعوة إليه.

وليس في الأمم أغلظ وأقسى طباعا من العرب فلما تحلوا بالإسلام منّ الله عليهم بالقلم وكانوا أميين فاتسعت صدورهم للإبداع في العمارة والطب والر ياضيات والفكر فكانت بلادهم هي الجامعات العلمية لأطراف المعمورة وما فقدت هذه الميزة في مهارتهم الحرفية والفكر ية إلا في وقت انقطاع حماسهم الديني.

و يلاحظ أن المهارة العلمية من صنع الإبرة إلى صنع القنبلة هذا اليوم بيد

الشيوعي الذي لا يؤمن بدين وبيد الهندي الذي حقيقة دينه الوثنية والتجسيم، وبيد العربي الذي يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يجد في بلاده مختبرا فهاجر إلى أمريكا يطلب الرزق.

إن الدين هنا لم يكن عامل تخلف والفارق الوحيد أن المسلم إذا ملك القوة حفظها بقانون الله الشرعي فاستعملها لإسعاد البشرية.

ولا يزال المسلم من مفهوم تاريخي لا نصي فحسب يتحدى أمم الأرض بسعادة الأمم المغلوبة في ظله بخلاف الزنوج في

أمريكا والعصبية للبيض في جنوب أفريقيا.

ويلاحظ أن الأمم القوية اختارت لنا مما عندها فقبلناه لأننا عاجزون عما نريده نحن.

ومنذ انفتاحنا على الغرب لم نحس أننا جارينا الغرب إلا في نظريات الأدب والموسيقى والاجتماع والتاريخ مع تعالم ما في نظريات الفلسفة والسياسة.

هذا أمر نقدر عليه بدون الغرب، وإن تخلفنا في هذا فأمر لا يضر لأنه لا يضير خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وصلاح

الدين الأيوبي أن لا يقيم بيتا من الشعر أو لا يتذوق قطعة من الموسيقى.

وإنما حاجتنا إلى كفاءة وطنية نطمئن إلى رأيها وإخلاصها في مستشفياتنا وشئوننا المعمارية والزراعية.

وإنما حاجتنا إلى يد تحسن أن تمسك بالمدفع.

وإنما حاجتنا إلى أنامل تتقن صنع المدفع!

وإن جاز للأوربي أن يلهو في ذلك فلعل له الحق لأنه يلهو بما صنعه من عرقه أما نحن فآخر من يفكر بالمتعة في حياته،

لأن في شيمة العربي وطبعه أنه لا يشرب إلا بساعده ولا يتكل على غيره.

وكل النظريات في السياسة والاجتماع والأدب والقانون والميتافيزيقا لنا منها رصيد كانت إلينا أوليته والتوسع في ذلك من النوافل إذا حققنا ضروراتنا المادية ثم في هذه النظريات ما كفينا مؤونته بعصمة الوحي كالفقه والتوحيد فالتماس غير ما أعطينا حقيقته من الوحي المعصوم في أمور لا تعرف بالمعمل والمخبر إنما هو ابتغاء للضلال وتشتيت للذهن في غير مجاله.

إ ن تخلف المفهوم النصي في جميع واقع الأمة الإسلامية هو سبب تخلفنا، لأن واقعنا

تخبُّط لضياع المنهج الحازم الصارم الموجه لمواهب الأمة، وقد حذر الله بالفتنة من يخالف أمره، وذل المسلمين اليوم من أعظم ظاهرات الفتنة.

إن المسئول عن تخلف المسلمين خيانة القيادات وتغفيل بعض القيادات المؤتمة بكل مايُملى عليها حتى في مناهج التربية والتعليم.

ولو وجدت القيادات الخيرة والمفهوم النصي الموحد لكان مئة وخمسون مليونا من العرب فقط - دون الدول الإسلامية الأخرى - قادرين على الاستغناء بمواردهم وأشخاصهم في كثير من الأمور قادرين

على مساومة عدوهم فيما يلزمهم من موقع القوة.

أقول هذا واقع الإسلام القيادي وواقعي المسلمين المتخلف.

وأنا أعلم أن للإسلام المطهر تدخلاً في حرية الفرد في مأكله ومشربه ولباسه وكلامه ومعاملته وحياته وأنه مسير في كل ذلك بمراد الله الشرعي.

ولكنني أعلم علم اليقين: أن الله ما حرم شيئا إلا وفيما حلله السعة والمخرج، وأن في كل ما حرمه الله بلاء للفرد والأمة لا يقيه منه إلا امتثال شرع الله، وأن كل ما يحصيه الدارسون اليوم من إيجابيات ترفع شأن الأمة لا يمكن أن تكون ضمن ما

حرمه الله بل يجب أن تُلتمس فيما أوجبه الله على الأعيان أو الكفاية.

وإن وجد المتفلسف في بعض ما حرمه الله شيئا من المنفعة فسيجد مقابل ذلك ثلاثة أمور:

أولها : أنه سيجد مضارا كثيرة تكون معها تلك المنفعة المتوهمة مما لا يعتبر في نصاب الفكر.

وثانيها : أنه سيجد في مباح الشرع ولازمه عوضا كريما لا يقر في الفكر غيره.

وثالثها : أنه سيجد من إيجابيات الفكر

أن وراء هذه الحياة الفانية دارا أبدية يُحتكم إليها في الترجيحات والمعادلات.

٩ ــ المعادلة التاريخية

في تاريخنا الإسلامي هفوات اقتضاها تدبير الله الكوني لتكون عبرة للخلف كالفتن التي جرت في عهد الصحابة.

ثم إن أمور الإمامة الكبرى تحولت من عهود العصمة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عهود المثالية النادرة في عهد خلفائه الراشدين.

وكانت الصغائر في حق أولئك كبائر فظيعة في نظر علماء المسلمين وفقائهم المأخوذين بمحاسن الإسلام في نصوصه وبسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين.

وآخر عهود الخلافة الإسلامية الخلافة العثمانية وفيها نقائص بمنظار العصبية للعرق العربي، وفيها نقائص بمنظار المفهوم النصي منذ ضعفت دولتهم وانتشرت في بلاد المسلمين البدعة والخرافة!!.

والمواطن المسلم يحمد الله على عزائم تاريخه الإسلامي و ينظر بالإغضاء إلى مافيه من ضعف وهفوة لا مستحسنا ولا مصوبا لأن الدعوة إلى منهج الخلافة بالمفهوم النصي هو عقيدة المسلم وتصوره وهدفه.

ولكنها إغضاءة من يعلم أن عز هذه الأمة وإيجابيتها إنما يلتمس في ظل هذا التاريخ بكل مافيه من إيجابية وسلبية وقد

شهد التاريخ أن هزائم الدولة العثمانية — وهي أضعف خلافة إسلامية — خير لنا من واقع التاريخ الحديث فلم يهن الإسلام وأهله ولم يذل العربي وتنتهب تركته إلا بعد انفصام الخلافة التركية.

وإذا انتقدنا تاريخنا الإسلامي في بعض مظاهر الضعف فيه فبمنظار الفقيه المسلم لا بمنظار العلمانية الحديثة والشعوبية المتربصة.

فالمستشرقون والعلمانيون والشعوبيون الذين يضخمون من حياة الترف واللهو التي يمارسها هارون الرشيد لا يتكلمون من منطلق الغيرة على المبادىء الخيرة التي ينادي بها الإسلام وإنما يتشفون من سمعة

هذا الخليفة لأن سلطان المسلمين في خلافته هو المهيمن في الأرض لم يتح رحمه الله لأي أمة همجية بربرية أن تتلاعب بمقدرات الشعوب كما نرى في بربرية هذا العصر.. عصر العلم الحديث.

ونجد مطران وشعراء المهجر وشعراء الطائفية كأدونيس يتصدرون القيادة للحملة على السلطان عبد الحميد من منطلق صليبي علماني طائفي وقد كان هذا السلطان حجابا بين شرقنا وبين أطماع الصليبية وهو الذي أبى تهجير الصهاينة إلى فلسطين.

لقد كان آخر خلفاء بني عثمان يمثلون

ضعف التاريخ الإسلامي ولكنهم لا يمثلون ذله وفرق بين الأمرين.

وكان من الأولى الالتفاف على هذا التاريخ لتقويته بزعامة إسلامية جديدة لا أن يستبدل بإمبراطوريات كافرة بالله من شيوعية ورأسمالية فبدل أن كان المسلمون رعايا الخلافة الإسلامية في الأستانة أصبحوا رعايا لقرارات الكونجرس والكرملين.

ووالله الذي لا إله إلا هو كلمة حق لا أرجو بها غير وجه الله ما وجدت زعامة عربية أو إسلامية بعد السلطان عبد الحميد — سوى إمام المسلمين عبد العزيز بن عبد

الرحمن آل سعود رحمه الله — يحق لها أن تنظر إلى مظاهر الضعف في تاريخنا الإسلامي بمنظار النقد.

فأترف رجالات الزعامة الإسلامية كهارون الرشيد وأضعفهم كعبد الحميد لم يتركوا لكافر على مسلم سلطانا ولم يبيعوا شبرا واحدا من أرض أمتهم ولم يفصلوا دين ربهم عن دولتهم ولم تعرف العمالة والخيانة سبيلا إلى صفوهم.

ومنذ خلت الساحة من هؤلاء الأخيار بقيت أمتنا دو يلات يزول عنها الاستعمار الأجنبي المباشر تارة وتبقى فعاليته بيد زعامات ربتها يد الأجنبي.

وتـتـعـاقـب تـارة أخـرى الـزعـامـات لاستهلاك قـوة الأمـة عـسكـر يـا واقتصاديا. والـغـزو الـفـكـري فـي كـل المراحل مستمر جوهره متقلب منظره.

إن المـسـلـم بمـفـهـوم نصي يصلح تاريخه ولـكـنـه لا يـكـون عـونـا للـحـاقـديـن عـليه الطامعين في أمته.

١٠ ـ شعار الهوية الإسلامية

تكونت هوية المسلم في تصوره وسلوكه وفق خبرة برهانية من واقع إيجابيات الفكر وطرده ومعادلاته.

وبهذا تكونت هويته فما الحاجة إلى الشعار؟!

وبطرح هذا الأمر للنظر تبينت ملامح ثلاثة:

أولها: أن الشعار ليس بدعة في حياة الناس فلكل دين أو مذهب أو أيدلوجية شعاره، بل للمؤسسات التجارية والعلمية شعارها.

وقد يكون هذا الشعار مجرد علامة كشعارات أندية الكرة.

وقد يكون هذا الشعار ذا مدلول تاريخي.

وقد يكون هذا الشعار ذا مضمون فكري أو تعليمي.

وقد يكون جامعا بين المضمونين كصليب النصارى.

وثانيها : أننا لم نجد في الفكر وجها معقولا يمنع من الشعار.

وثالثها : أن بعض الشعارات ذات

إيجابيات ملموسة وبالذات شعار المسلم فهو جزئيات كثيرة تكون هويته.

فمن شعار المسلم أن لا يتشبه بأعداء الله وأعداء أمته في ملبس أو مأكل أو مشرب أو هيئة.

إن هذا الشعار جزء من الهوية الإسلامية لأن منطوق النص الشرعي أكد مخالفة اليهود والنصارى وحرم التشبه بالكفار، وسيادة النص في حياة المسلم عنصر من عناصر هويته.

وهذا الامتثال في نهايته شعار ذو مضمون فكري لا أستطيع أن أستوعبه من

أطرافه ولكنني أذكر أن من دوافع التشبه في أغلب العادة المحبة والإعجاب، وليس لعدو الله وعدو الأمة أي مكان في قلب المسلم من المحبة والإعجاب فإن وجد في حياة الكافر إيجابية شد المسلم مئزره حتى يحصلها دون أن ينفسخ من شعاره أو يتنازل عن شيء من هويته، فاللحية شعار إسلامي لم تضر كارل ماركس وهو من أئمة الكفر ولم تضر برنارد شو وهو من أئمة العابثين!

وإذا رأى المسلم شعاره يستخدمه الكافر فلن يضيره ذلك لأنه اتخذ شعاره دينونة لله ولم يتخذه تشبها بأعداء الله.

وإذا كان التشبه دافع محبة وإعجاب

في الغالب[1] فسيثمر إيجابية سيئة ترتد على محبة دين المسلمين والإعجاب بسيماهم، ولهذا رأينا التشبه بأعداء الله أنتج ثمرة رديئة هي السخرية بسيما المسلمين وسمتهم ومروآتهم.

والمأثور أن من تشبه بقوم حشر معهم.

فإن كان هذا إنشاء فهو واضح، وإن كان خبرا فمعناه أن المتشبه يأنس بمن تشبه بهم ويحبهم ويحاكيهم في تصورهم وسلوكهم فينقلب إلى ربه بغير الهوية التي اختارها له ربه بحكمه الشرعي.

(١) والبرهان على ذلك أن أسوة معظم الشرقيين اليوم محاكاة الغرب والأمم القوية لا محاكاة المستضعفين في مجاهل أفريقيا وشرق آسيا.

إذن لم يكن الشعار الإسلامي عبثا، بل الواقع أن تصميم المسلم على شعاره أول عمل له إيجابي لتحقيق وجوده الدنيوي من خلال هويته، وهو أول صفعة يلطم بها وجه عدوه فلا يطمع منه بمزيد من الانقياد فيذل فكره ويهين عقيدته وتاريخه ونخوته كما أذل واقعه الراهن سياسيا وعسكريا واقتصاديا وعلميا.

إن السعي إلى سلخ المسلم من شعاره وهويته مؤامرة مدبرة حذرنا منها خالق الأجيال وعالم الغيوب منذ أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم — والخطاب لأمته — بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنا حتى نتبع

ملتهم، وأن إطاعتنا أكثر من في الأرض ضلال، وأن الهدى هدى الله.

والسيادة على الأرض اليوم إنما هي لليهود والنصارى وأكثر من في الأرض وهم عبدة الرغيف.

ولا يستطيع أي مراوغ أن يزعم بأن هيئة العربي اليوم هيئة كوَّنها باختياره إذ رفض هيئته التاريخية، وإنما هي هيئة سِيق إليها من حيث لا يعلم.

إن مناسج الغرب ومناسج النصارى في بلاد العرب ومناسج المسلمين المخدوعة فرضت علينا رفع شعار الصليب من حيث لا نشعر.

تجد هذا في لباس أطفال المسلمين حيث يربط لباس الصدر بلباس القامة من خلال الظهر بطريدتين متقاطعتين على شكل صليب.

وإذا كان الظاهر أن زعماء وقادة الأمم الكافرة لا يظهر عليهم الالتزام بدينهم فلا يعني ذلك أن الغارة الفكرية وهم في عقل الشرقي وذلك لعدة اعتبارات:

أولها : أن زعماء وقادة الأمم الكافرة ليسوا حاكمين بأمرهم كما هي الحال في معظم شرقنا العربي، وإنما هم جهات تنفيذ لقرارات أمم ذات أيدلوجية ومطامع دنيوية وهوية دينية.

وثانيها : أن هؤلاء الزعماء ذوو غيرة حقيقية على دينهم وتصميم إرادي على خدمة مبادئهم وإن بدوا في ظاهر سلوكهم غير ملتزمين.

إن زعيما كمناحيم بيجن وكيسنجر يستحيل أن يكون لهما هدف أعلى خلال كثير من المتناقضات غير خدمة اليهودية وإسعاد حياة الصهاينة.

وثالثها : أن من مبادىء أيدلوجية المؤامرة الفكرية تحريم التزمت والتعصب للأديان، ولهذا كان زعماء الأعداء ممن يظهر عليهم التسامح وعدم الالتزام الحرفي لدينهم، لأنهم واجهة التعامل مع العالم ولكن سياسة

الأمة سواء أكانت أيدلوجية أم تحليلية ترسم من مجالس ذات عقيدة ودين.

ألا ترى أن دارسي السياسية الخارجية حكموا بأن السياسة الأمريكية سياسة تحليلية بيد أننا نرى في سياسة هذه الأمة حماية الأقلية من ذوي الأديان، والمقصود بالطبع اليهود والنصارى فهذه سياسة أيدلوجية من خارجية توصف بأنها تحليلية!

ورابعها : أن في الأديان المحرفة المبدلة سعة صدر لانحراف السلوك فيظل النصراني نصرانيا وإن لم يعاود الكنيسة كل يوم أحد، وبإمكانه أن يتجرد من كل ذنوبه

في سن الشيخوخة أو الانعزال عن الحياة بالاعترافات وصك الغفران.

وخامسها: أن في الأديان المحرفة المبدلة سعة صدر لاصطناع الانحراف تصورا وسلوكا لخدمة غاية تمليها إرادة الأمة لا سيما دين اليهود فبإمكان اليهودي أن يظل سنين طويلة نصرانيا أو مسلما أو بوذيا أو طائفيا لخدمة أهداف أمته.

وليس هكذا أمة الإسلام فليس في المفهوم النصي من دينهم ولا في الواقع من تاريخهم أن يتنصر المسلم ظاهرا أو يتهود لخدمة غرض معين.

لا يؤثر شيء من ذلك مطلقا في تاريخ المسلمين بل كل أعمالهم في العلن لا يمكن أن يستروا شيئا من دينهم استحياء أو مكيدة، ولا يمكن أن يدعوا شيئا ليس من دينهم لنقص يحسون به، ولا يمكن أن يسعوا بالدس إلى تشويه أو تحريف معتقد أو مذهب لأحد الأمم ولكنهم يعلنون فساده وضلاله في وضح النهار.

١١ ـــ محور الهوية الإسلامية

إنما أهدف إلى محور الهوية الإسلامية بمفهوم نصي لا بمفهوم تاريخي.

أهدف إلى مفهوم تحدده نصوص الشريعة الإسلامية بأمتن وأصلب مناهج الفكر المستقيم السليم من التناقض والإحالة والحسبانية أو المكابرة والعناد.

قد مهدت لذلك بشذرات أحسبها التصورات الأولية الضرورية لهذا المفهوم و عسى أن أعان على هذا المفهوم في لحيظات نشاط أخرى.

وإنما تجانفت عن المفهوم التاريخي، لأن

المفهوم النصي هو الأسوة الحقيقية الصحيحة، أما هفوات التاريخ فمنها الاجتهادي الذي يعذر ولا يؤجر، ومنها الخطأ المتعمد الذي يرجى تكفيره بجلائل أعمال أخرى، إلا أن ما يلزمنا حيال هذا التاريخ أوضحته في معادلة تاريخية.

لهذا كان ابتغاء الهوية الكاملة من واقع المسيرة الفردية من مجموع السيرة العملية لعامة المسلمين في تاريخهم نوعا من المغالطة، لأن الإسلام شيء وواقع المسلمين شيء آخر.

إلا أن الهوية التي حددها المفهوم الشرعي تلمع نيرة في جماعات إسلامية

عصم الله علنها من الضلال.

ويعتري الفرد الذي هو لبنة خيرة في الجماعة الإسلامية حتمية الضعف البشري التي تتسلط على سره أحيانا أو على مايكتشف من سره فيغطش ذلك الضعف شيئاً من جوهر هويته دون أن يطغى هذا الضعف على علنه لأن علن المسلمين معصوم.

ولهذا قلت إن هوية المسلم مفهوم نصي يوجد في علن كل مجتمع تكون فيه الحاكمية للإسلام.

والمسلم الحقيقي لا يستسلم للضعف

في سره دائما، بل جعل الله له من هذا الضعف وسيلة ليجدد الصلة بربه دائما، ولهذا قيل دموع العصاة قربات الأبرار.

وحينما تحرص هذه الضميمة على جلاء الهوية الحقيقية للفرد المسلم — مع ما فيها من عزيمة وما في الفرد من ضعف —: فإنما تطمح إلى أن تكون هذه الهوية رمزا واضحا وشعارا حقيقيا للجماعة الإسلامية.

أما ظهور الانحراف علنا فلا يغني عنه وجود أفراد معتصمين بالشرع، ولا يمكن وصف الجماعة التي يوجد الانحراف في أفرادها علنا بالجماعة الإسلامية.

الجماعة الإسلامية هي التي يكون علنها كريما وتفرقها مرحوما.

وعلى الفرد المسلم في حالة غياب الرقيب — سوى رقابة الله — أن يجاهد نفسه في إصلاح نيته ليصقل هويته التي يغطشها حالات ضعفه البشري حتى يكون شعار الجماعة الإسلامية شعاره الحقيقي في السر والعلن.

ولا مجال للمسلم في التنصل من عزيمته استسلاما لضعفه، لأن الذي خلقه — وهو أعلم بقوته وضعفه — هو الذي فرض عليه شرعا يأخذه بالعزيمة، فما دام خالق الخلق

هو منزل الشرع فالبديهة أن خالق الخلق أعلم بما يصلحه.

لا مجال للمسلم في أن يتنصل عن عزيمة ربه الشرعية و يقول أبى عليَّ ما يعلمه الله من شهوة وهوى ونفس أمارة بالسوء.. وكل هذه مغريات مغويات فوق طاقتي والله يشهد على ذلك!!.

لا مجال للمسلم في هذا أبدا، لأنه ليس بين المسلم وبين الانتصار الساحق على تلك المغريات المغويات إلا أن يستخدم حريته الفردية التي ملكها الله إياه.

والفرد المسلم يملك هذه الحرية في ثلاثة حقول:

١– حقل النية لا سلطان لأحد عليها، وقد بينت نصوص الشرع أن الشيطان يقذف في الصدر بوساوسه ولكنه لا يعلم مافي الصدر، ولا يعلم نية الفرد غير الله.

إذن الفرد يملك نيته بحرية مطلقة.

فمن ظلت نيته دائما صالحة فمحال أن تنتصر عليه المغريات المغويات.

وبرهان ذلك التجربة.

٢– حقل القول سرا وعلنا.

فكل فرد يملك الحرية في هذا الحقل، والله لم يكلف الخلق إلا حسب قدرتهم.

يملك الفرد المسلم في هذا الحقل — بدون أدنى مشقة — حرية دعاء الله وتقديسه والتضرع إليه.

ومن ترامى بين يدي الله بهذه الحرية فمحال أن تنتصر عليه المغريات المغويات.

والبرهان على ذلك التجربة.

٣— حقل العمل سرا وعلنا.

فكل فرد يملك حرية في هذا الحقل، والله لا يكلف الخلق إلا حسب قدرتهم.

يملك الفرد المسلم في هذا — إن بمشقة ما أو بدون مشقة — أن يؤدي الواجبات والنوافل.

والذي يستطيع عمل الشر يستطيع عمل الخير.

ولكن الذي يغالب عمل الشر بأعمال الخير — مع استثمار حريتي النية والقول — يستحيل أن يظل تحت عبودية المغريات المغويات.

والبرهان على ذلك التجربة.

وهوية المسلم تلتمس من موقفه حيال الشرع الذي يرد على منحيين لا ثالث لهما:

(أ) إخبار الله لعباده إما بحقيقة يجهلونها أو يغفلون عنها، وإما بحقيقة يعتبرون بها لكشف حقيقة أخرى أو لكي لا يغفلوا عن حقيقة أخرى.

وهاهنا تتحدد هوية المسلم من ناحية التصور تحددا لا مسامحة فيه فلا يقبل منه إلا التصديق المطلق جملة وتفصيلا بيقين لا شك فيه ولن يحصل الفرد على هوية المسلم بدون هذا الشرط.

والمنحى الشرعي الثاني الذي سيأتي بيانه لا خطر له في حياة الفرد إذا لم يكن ثمرة لهذا الموقف وهو الإيمان والتصديق بنية الدينونة لله سبحانه وتعالى، ولهذا أحبط الله

الأعمال الخيرة للكفار وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن جدعان — كما في صحيح مسلم — بأن أعماله الخيرة التي عملها لا تنفعه لأنه لم يقل يوما ما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، كناية عن الإيمان.

وجرت سنة الله الكونية بأن الكافر الملحد لا يأخذه الله بذنبه في الدنيا بل يمهل له و يبسط له في زينته إلا في حالات يكون فيها التحدي لسلطان الله الكوني فهذه سنة ماضية باقية إذ يأخذ الله الجبابرة أخذ عزيز مقتدر.

والمسلم يُخاف عليه أن يؤخذ بذنبه في

الدنيا ولهذا يعتصم عصاة المسلمين بالاستغفار وتجديد التوبة والندم واستشعار العبودية لله دائما.

(ب) تكليفات من الله لعباده تتضمن الأمر بشيء أو النهي عن شيء.

وموقف الفرد من هذه التكليفات يحدد هويته من ناحية السلوك، وهي هوية غير محصورة الرتبة بل هي رتب متفاوتة أعلاها رتبة المحسنين ثم رتبة من خلط عملا صالحا وآخر سيئا ما بين من رجحت حسناته بسيئاته، أو تساوت الكفتان.

وأدنى هذه الرتب من رجحت سيئاته بحسناته.

وثمرة هذه الرتب تكون في دار الجزاء وهي دار التغابن إلا أن الله ضمن للمؤمن العاصي أن لا يخلده في النار ولكنه قد يعذبه أحقابا لا يعلمها إلا هو.

من هذين المنحيين الشرعيين ومن موقف الفرد منهما يتألق محور الهوية الإسلامية تصورا وسلوكا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على عباده المرسلين.

.. التارك لشرع ربه متحرر من عبوديته لربه بإرادته لتقوم عليه الحجة.

ولكن المؤمنين والكافرين عبيد لتدبير الله الكوني على رغمهم.

ليس لأحد من عبيد الله أدنى علم مسبق بمجرى الأحداث في دقيقة واحدة من حياته.

وليس لأحد من عبيد الله أدنى اختيار بأن لايموت أو لايهرم أو لايمرض أو لايحزن أو لايفتقر أو لايكون ذا عاهة.

ليس لأحدهم أن يجري أي حدث في الكون على ما يشتهي.

ومن تشرف بالعبودية لشرع الله فالله لايكلفه إلا وفق مامنحه من حرية كونية..

٣ ر.س

خشوع الصحابة

رضوان الله عليهم

وأحوال مبتدعة

حرره

أبو عبد الرحمن إبن عقيل الظاهري

(محمد بن عمر)

- عفا الله عنه -

بسم الله الرحمن الرحيم

خشـــوع الصحابـــة
رضـوان الله عليهـــم
وأحـوال مبتدعـــة

حـــــرره :

أبو عبدالرحمن ابـن عقيـل الظاهــري

محمـد بن عمـر

ــ عفـا الله عنـه ــ

فهـرس إجمالـي

١ ــ استفتــاح وتوطئــة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد إمام المتقــين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا الله منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد : فكنت فيما قبل عهد الصحوة ــ في مختلف الأطوار التي مرت بها حياتي ــ في وجل وانقباض نفسي من واقع المسلمين، وواقع الإسلام في حياتهم.

وكاد اليأس يغمرني لتأصل العلمانية في الأرجاء المجاورة، ولغلبة الشعارات بغير دعاية الإسلام.

وإنما كان يبعث الأمل أحياناً كتيبات ومقالات تراهن على أن المستقبل للإسلام كبعض كتابات سيد قطب رحمه الله تعالى.

وقامت الصحوة الإسلامية في بلادي وفي الأرجاء فانجبر خاطر كان مكسوراً، وانفك حصار الوحشة من المجتمع.

وكان من المتوقع أن يكون في الدعوة إلى الله غلواء بمقدار الغلواء السابقة التي كانت يوم كان البعد عن الله.

ولكن بحمد الله ظلت الصحوة بحضانة ذوي العلم والتطلع وذوي العقل من المشايخ كبار السن.

وما هو محل نقد أو أخطاء فيوجد عند العامة، وعند صغار سن ذوي تحمس ولم يصلوا إلى العلم الذي يجنح بهم، ولا إلى التجربة التي ترسيهم.

وأنكرت من عمل العامة التباكي وهم يحسبونه شرعاً فبينت في كتيبي «البكاء المبرور» حكم الشرع في ذلك.

وامتداداً لهذا كان هذا الكتيب عن أحوال طرأت على أحوال الصحابة رضوان الله عليهم من صياح واضطراب وغيبوبة وموت، وكان لأهل التصوف من ذلك نصيب الأسد.

فأردت في هذا الكتيب أن أشرح حال السلف، ثم أشرح الأحوال التي حدثت، ثم أتكلم عن مدى ثبوتها، وتفسيرها، والحكم فيها.

وبإيجاز أقول : إن إيمان أهل الدنيا إيمان بالغيب يعتمد على العقل والحس وليس إيمان مشاهدة يتجلى فيها الضعف البشري أمام المغيب الهائل لو كان مشاهداً.

ولو عاين الكفار العتاة ما يوعدون به من المغيب لكانوا رقيقي القلوب.

إذن ليس في طبيعة البشر أن يصعقوا ذلك الصعق المدعى أمام السماع عن الواقع المغيب.

ورسول الله وكليمه موسى عليه السلام صعق لما تجلى ربه إلى الجبل، ولم يصعق لمجرد علمه بالواقع المغيب.

وصفوة الخلق من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصحبهم وحوارييهم رضي الله عنهم لم يموتوا بشهقة وهم أعلم الخلق بالله.

إنهم يعلمون ويخشعون ويبكون ويخشون الله ويوازنون بين الخوف والرجاء فتكون حياتهم معتدلة.

ومن دونهم من المؤمنين يعتور إيمانهم ما يتسلط على النفس البشرية من شهوة غضبية وفكرية وشكوك ووساوس، ولكنهم لا يموتون بشهقة بل يستردون أنفاسهم للعمل النافع.

وليس من يدعى لهم الصعق بأعرف من أولئك ولا أخشى.

٢ ـ خشوع الصحابة رضوان الله عليهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «السماع الذي أمر الله به ورسوله، واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق هو سماع القرآن، فإنه سماع النبيين، وسماع العالمين وسماع العارفين، وسماع المؤمنين.

قال سبحانه وتعالى : ﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً**﴾ [سورة مريم /٥٨]. وقال تعالى : ﴿**إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً**﴾ [سورة الاسراء / ١٠٧ ــ ١٩].

وقال تعالى : ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ [سور المائدة /٨٣]. وقال تعالى : ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما زرقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً هم**

درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ [سورة الأنفال / ٢ — ٤]. وقال سبحانه وتعالى : **﴿وإذا قرىء القرآن فاستعموا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾** [سورة الأعراف /٢٠٤]. وقال تعالى : **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾** [سورة الأحقاف /٢٩].

وقال سبحانه وتعالى : **﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾** [سورة الزمر /٢٤[. وقال سبحانه وتعالى : **﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ..﴾** [سورة الزمر /١٨]. وهـذا كثير في القرآن.

وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع، فقد ذمّ المعرضين عنه، كما قال : **﴿وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾** [سورة فصلت /٢٦]. وقال : **﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾** [سورة الفرقان /٧٣]. وقال سبحانه وتعالى : **﴿فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة﴾** [سورة المدثر / ٤٩ — ٥٠]. وقال سبحانه : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه...﴾** [سورة الكهف /٥٧]. وقال :

﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ [سورة الأنفال / ٢٢ — ٢٣]. وقال سبحانه وتعالى : ﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم**﴾ [سورة لقمان /٧].

وهذا كثير في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع، ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه، ويبغضه[1].

وقبل ابن تيمية استشهد القرطبي رحمهما الله جميعاً بهذه الآيات، وبقوله تعالى : ﴿**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾ [سورة التوبة / ١٢٤].

قال أبو عبدالرحمن : ففيه مع الخوف رجاء ومع الروع بشرى.

واستشهد القرطبي بقوله تعالى : ﴿**ألا بذكر الله تطمئن قلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ [سورة الرعد / ٢٨ — ٢٩].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١ /٥٨٧ — ٥٨٩.

وقد قدم القرطبي للنصوص التي ساقها بقوله : «اعلم وقانا الله وإياك بدع المبتدعين ونزغات الزائغين أن سماع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنما كان القرآن، فإياه يتدارسون، وفيه يتفاوضون، ومعانيه يتفهمون.. يستعذبونه في صلواتهم، ويأنسون به في خلواتهم، ويتمسكون به في محاولاتهم ويلجأون إليه كما أمروا، وإذا قرأوه تدبروا واعتبروا، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واقتبسوا أحكامه.. يتخلقون بأخلاقه، ويعملون على وفاقه علماً منهم بأنه طريق النجاة ونيل الدرجات ... وتلاوته أفضل العبادات، وأجل القربات، فإنه حبل الله المتين، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد.. من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم.

هكذا قاله من عليه الصلاة والسلام والتسليم، وكان لهم عند سماعه من الأحوال ما قاله ذو الجلال : ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ [سورة الأنفال / ٢][٢].

---

(٢) كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ص ١٧٩.

ثم سابق بقية النصوص.

قال أبو عبدالرحمن: لم نؤمر بالتطبع على الغشي والاضطراب والانغلاق على الزواجر وآيات الخوف حتى يستحوذ على القلب أن عذاب النار واقع لا محالة، فيكون المصير الغشي أو الصياح أو الاضطراب أو الجنون بعد التطبع على الحزن.

بل حذرنا من قسوة القلوب وضدها الخشوع.

قال تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ [سورة الحديد / ١٦].

* * *

٣ ـ شرح أحوال بعض من بعد الصحابة عند سماع القرآن والمواعظ والحكم فيها :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن سماع الصحابة رضوان الله عليهم : «وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد..

وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن، وكانت موجودة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أثنى عليهم في القرآن، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة : الاضطراب، والاختلاج، والإغماء أو الموت، والهيام، فانكر بعض السلف ذلك[٣].

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك، فإن السبب إذا لم يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً.

لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين[٤]، كما

(٣) بقية العبارة : إما لبدعتهم وإما لحبهم.
قال أبو عبدالرحمن : ولم أعرف ما المقصود من حبهم الذي يكون سبباً لإنكار السلف عليهم، فتجاوزت العبارة وتوقعت أن في الكلام تطبيعاً.

(٤) قال أبوعبدالرحمن : عكس القسوة الخشية والخشوع والبكاء لا الأحوال المستحدثة.

ذمّ الله الذين قال فيهم : ﴿**ثم قست قلوبهم من بعد ذلك**﴾ وقال : ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون**﴾[٥].

---

(٥) مجموع الفتاوى ١١ / ٥٩٠ — ٥٩١ و ص ٦٢٩ وبعد هذه العبارة :
«ولو أثر فيهم آثاراً محمودة لم يجذبهم عن حد العقل لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين».
قال أبوعبدالرحمن : هذا كلام مضطرب غير مفهوم، وهو إما تطبيع وإما فساد في الأصل.
قال أبو عبدالرحمن : في هذا الكلام تعقيد، ومعناه أن السماع إذا لم يخرجهم عن حد العقل فحكمه حكم من أخرجه السماع إلى حد العجز — كما سيأتي التقسيم في كلامه اللاحق إلى زوال عقل وزوال قدرة — فهو محمود معذور لأن السماع أثّر يه آثاراً حميدة.
قال أبو عبدالرحمن : إذا كانت الآثار ما سلف من أحوال الصحابة فتلك آثار محمودة بلا خلاف.

وإن كانت تلك الآثار ما حدث من أحوال من بعد الصحابة ففي ذلك الخلاف هل هي آثار محمودة أم لا ؟
الجواب : أنه إذا تصور واقعاً أن الغشي والصياح والجنون والموت كل ذلك يحصل بدون تغليب للقنوط واليأس، وبدون تعاطي سبب غير مشروع فإن صاحب تلك الأحوال معذور مأجور وليس أكمل حالاً، لأن الصحابة أكمل حالاً ومنعهم إيمانهم المعتدل بين الخوف والرجاء من أن يكونوا ضحايا تلك الأحوال المستحدثة.
ولكن الراجح أن تلك الآثار لا تحصل إلا لمن غلب عنده جانب العذاب واليأس كأن النار ما خلقت إلا لهم في أحوالهم تلك. =

وتكلم شيخ الإسلام عن هذه الأحوال في موضع آخر فقال : «فالأحوال التي ترد على العباد وأهل المعرفة والزهاد ونحوهم مما توجب زوال عقل أحدهم وعلمه حتى تجعله كالمجنون والموله والسكران والنائم... أو زوال قدرته حتى تجعله كالعاجز، أو تجعله كالمضطرب الذي يصدر عنه القول والفعل بغير إرادته واختياره فإن زوال العقل والقدرة قد يوجب عجزه عن أداء واجبات، وقد يوجب وقوعه في محرمات، فهؤلاء يقال فيهم : إن كان زوال ذلك بسبب غير محرم فلا حرج عليهم فيما يتركونه من الواجبات ويفعلونه من المحرمات[٦].

ولا يجوز أيضاً اتباعهم فيما هو خارج عن الشريعة من أقوالهم وأفعالهم، ولا نذمهم على ذلك، بل قد يمدحون على ما وافقوا فيه الشريعة من الأقوال والأعمال، ويرفع عنهم اللوم فيما عذرهم فيه الشارع كما يقال في المجتهد المخطىء سواء، بل المجتهد المخطىء نوع من هذا الجنس حيث سقط عنه اللوم

= أما الكمَّل فيعتقدون أن النار خلقت للكفار ولمن اقتضت مشيئة الله تعذيبه من عصاة الموحدين، ولكنهم إذا عملوا شمروا وعملوا عمل من يعتقد أن النار ما خلقت إلا له.
وليس هذا اعتقاده في الواقع.

(٦) قال أبو عبدالرحمن : يبقى الخلاف في السبب غير المحرم هل يوصل إلى عجز عقلي أو جسمي ؟!.

لعجزه عن العلم

وإن كان زوال ذلك بسبب محرم استحقوا الذم والعقاب على ما يتركونه من واجب ويفعلونه من محرم.

مثال الأول من يسمع القرآن على الوجه المشروع فهاج له وجد يحبه، أو مخافة أو رجاء، فضعف عن حمله حتى مات أو صعق أو صاح صياحاً عظيماً، أو اضطرب اضطراباً كثيراً(٧)، فتولد عن ذلك ترك صلاة واجبة، أو تعدٍّ على بعض الناس، فإن هذا معذور في ذلك، فإن هذا في هذه الحال بمنزلة عقلاء المجانين الموهين الذين حصل لهم الجنون مع أنهم من الصالحين وأهل المعرفة : إما لقوة الوارد الذي ورد عليهم، وإما لضعف قلوبهم عن حمله، وإما لانحراف أمزجتهم وقوة الخلط، وإما لعارض من الجن، فإن هؤلاء كما بلغنا عن الإمام أبي محمد المقدسي حيث سئل عنهم فقال : هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب.

---

(٧) قال أبو عبدالرحمن : لا يتصور هذا لمن كان إيمانه إيمان غيب لا شهادة إلا إذا انجمع قلبه على غلبة العذاب مع اليأس من الرحمة وانصراف النظر كلياً عن الامتثال الذي يكون سبباً للجنة.

فإن قيل : «حصل لهم وارد اليأس أو شدة الخوف بوسواس» : فهم حينئذ معذورون، وصاحب الوسواس لا يكون قدوة.

ولهذا كان هذا الصنف والذي قبله موجوداً في التابعين ومن بعدهم لاسيما في عُبَّاد البصريين، فإن فيهم من مات من سماع القرآن كزرارة بن أوفى، وأبي جهير الضرير وغيرهما.

وأما الصحابة فإن حالهم كان أكمل من أن يكون فيهم مجنون أو مصعوق.

ومن هؤلاء أيضاً من غلب عليه الذكر لله والتوحيد له والمحبة حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عما سواه كما يحصل لبعض العاشقين في غيبته بمعشوقه عما سواه(٨)، فيقول أحدهم في هذه الحال : أنا الحق، أو سبحاني، أو مافي الجبة إلا الله.

ومنهم من غلب عليه حال الرجاء والرحمة حتى قال : أبسط سجادتي على جهنم.

فمن قال هذا في حال زوال عقله بحيث يكون كالسكران أو الموله، وكان السبب الذي أوجب ذلك غير منهي(٩) عنه

(٨) قال أبوعبدالرحمن : لا والله ليس في الشرع غيبة بمحبوب وفناء، ولا يمكن أن يكفر فيقول أنا الحق أو سبحاني من غلب عليه ذكر الله.
وإنما يقول ذلك مجنون، أو مغلوب على عقله تلك اللحظة، أو كافر دعي.

(٩) لا يمكن أن يكون السبب غير منهي عنه إلا بجنون غير إرادي، وأما من تعرض لاستخدام الجن فجنونه إرادي.

شرعاً فلا إثم عليه.

ومثال الثاني ما قد يحصل عند سماع المكاء والتصدية لكثير من أهل السماع، فإنه قد ينشد أشعاراً فيها ما يخالف الشرع بأصوات مخالفة للشرع، ويكون للإنسان فيه استعداد فيوجب ذلك اختلاطاً وزوال عقل، حتى يقتل بعضهم بعضاً إما ظاهراً، وإما باطناً بالهمة والقلوب(١٠).

ويوجب أيضاً من ترك واجبات الشريعة، ومن الاعتداء على المؤمنين في الدين والدنيا ما الله به عليم.

وكذلك قد يسلك أحدهم عبادات غير شرعية في الاعتقادات والأعمال فتورثه تلك العبادات والأعمال أحوالاً قوية قاهرة يترك بها الواجبات ويفعل بها المحرمات أعظم مما يفعله الملك الجبار إذا سكر بشرب الخمر بالنفوس والأموال.

وإذا خوطب أحدهم في حال صحوه وعقله قال : كنت مغلوباً، وورد علي وارد فعل بي هذا، والحكم للوارد.

وهذه حال كثير من خفراء العدو وكثير ممن يعين الكفرة والظلمة، ويعتدي على المسلمين والمؤمنين من أهل الأحوال،

---

(١٠) قال أبو عبدالرحمن : لا أعهد شيئاً عن القتل بالهمة والقلوب حاشا العين فإنها حق وهي تقتل، بإذن الله.
والسحر ليس من أعمال القلوب.

ويقول : إنه مغلوب في ذلك، وأنه ورد عليه وارد أوجب ذلك، وأنه خوطب بذلك الفعل.

فيقال : أما زوال عقلك حتى صرت لا تفهم أمر الله ونهيه وزوال قدرتك حتى صرت مضطراً إلى تلك الأفعال (وإن كنت صادقاً في ذلك) فسببه تفريطك وعدوانك أولاً حتى صرت في حال المجانين والسكارى، فأنت بمنزلة شارب الخمر الذي سكر منها، والمتعرض للعشق حتى يعشق فيفعل فيه العشق الأفاعيل، إذ لا فرق بين سكر الأصوات والصور والشراب، فإن هذا سكر الأجسام وهذا سكر النفوس وهذا سكر الأرواح، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً في دين الإسلام.

ولهذا إنما تقع هذه الأحوال ممن فيه نصرانية يميل بسببها إلى السكر كما يفعله النصارى في الشراب والأصوات والصور، ولهذا كان هؤلاء في عالم الضلال.

وأما قولك : إنك خوطبت بذلك وأمرت فمن أي الجهتين ؟

أمن جهة الكلمات الدينية ؟.

أم من جهة الكلمات الكونية ؟.

فالأولى مثل قوله : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾

وقوله : ﴿**هو الذي بعث في الأميين**﴾ وقوله : ﴿**ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات**﴾.

والثانية مثل قوله : ﴿**أمرنا مترفيها**﴾ وقوله : ﴿**بعثنا عليكم عباداً لنا**﴾ وقوله : ﴿**إنا أرسلنا الشياطين**﴾.

فإن ذكرت أنه من الجهة الأولى فباطل بخلاف الكتاب والسنـة.

وإن أقررت أنه من الثانية فصحيح، لكن هذا حال الكفار والمنافقين مثل إبليس وفرعون ونمرود، وسائر من أطاع الأوامر الكونية، وتبع الإرادة القدرية وأعرض عن الأوامر الشرعية، ولم يقف عند الإرادة الدينية.

فتدبر هذا الأصل فإنه عظيم نافع جداً فتنكشف به الأحوال المخالفة للشرع، وانقسام أهلها إلى معذور وموزور انقسامها إلى مسطور على صاحبه ومغفور بمنزلة الأحوال الصادرة عن غير أهل العبادات والزهادات من العقل والصحو، ومن الإغماء والسكر والجنون، ومن الاضطرار والاختيار، فإن أحوال الملوك والأمراء وأحوال الهداة والعلماء، وأحوال المشايخ والفقراء تشترك في هذه القاعدة الشريفة، وتحكم الشريعة فيها بالفرقان.

وإذا ضم إلى ذلك أن ما يصدر عن ذوي الأحوال من

كشف علمي أو تأثير قدري ليس بمستلزم لولاية الله، بل ولا للصلاح، بل ولا للإيمان، إذ قد يكون هذا الجنس في كافر ومنافق وفاسق وعاص، وإنما أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقـون.

ففرق بين ولاية الله وبين الأحوال، كما فرق بين خلافة النبوة وبين جنس الملك، وفرق بين العلم الذي ورثته الأنبياء وبين جنس الكلام، فبين هذين النوعين خصوص وعموم، فقد يكون الرجل ولياً لله له حال تأثير وكشف، وقد يكون ولياً ليس له تلك الحال بكمالها، وقد يكون له شيء من هذه الأحوال وليس ولياً لله، كما قد يكون خليفة نبي مطاعاً وقد يكون خليفة نبي مستضعفاً، وقد يكون جباراً مطاعاً ليس من النبوة في شيء، وقد يكون عالماً ليس متكلماً، بما يخالف كلام الأنبيا، وقد يكون عالماً متكلماً بكلام الأنبياء»[11].

قال أبو عبدالرحمن : هذا كلام نفيس، وهو كاف لمن كان هدفه معرفة الحكم في أصحاب ذوي الأحوال هل هم معذورون أو غير معذورين.

فقد يعمل المسلم غير الجائز ويكون معذوراً.

---

(١١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠ /٣٤٨ ــ ٣٥٣.

أما من همه حكم الحال ذاتها فعليه أن يقف عند حال ذوي المثال الأول الذين هم معذورون ليعلم أن الموت والصعق والاضطراب الكثير من سماع القرآن لن يكون عن إيمان صحيح نقي من الشوائب، ولو كان كذلك لكان من يموت أعظم درجة ممن لا يموت فيكون هؤلاء أعلى مقاماً من محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ؟.

ومعاذ الله أن نزعم لأحد من الأمة مقاماً إيمانياً أعلى من مقام محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم.

وفناء الصوفية قسَّمه شيخ الإسلام إلى فناء إرادة، وفناء شهـود.

وفسر فناء الإرادة ومدحه بقوله : «فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته، وتألهه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له، و ما يتبع ذلك من المعارف والأحوال وليس لأحد خروج عن هذا.

وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه : ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة وما يتبع ذلك.

وهذا الفناء لا ينافيه البقاء بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه وإن كان شاعراً بالله وبالسوى، وترجمته قول لا إله إلا الله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن. وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره»[١٢].

وفسر فناء الشهادة وذمه بقوله : «وفناء القلب عن شهود ما سوى الرب، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ماهي عليه وهو شهود الرب[١٣] مدبراً لعباده آمراً بشرائعه أكمل من شهود وجوده أو صفة من صفاته أو اسم من أسمائه والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك.

ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن ينقصهم شهود للحق مجملاً عن شهوده مفصلاً.

---

(١٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠ /٣٣٧ ـــ ٣٣٨.

(١٣) قال أبو عبدالرحمن : هناك شهود بصر وشهود بصيرة، فشهود البصيرة العلم بالله وبما له من الكمال، وشهود البصر رؤية مخلوقاته وآثار فعله الدالة عليه.
فهذان هما معنى الشهود ها هنا.

ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق(١٤) الموت والغشي والصياح والاضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ماهي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة(١٥) في الوحدة، حتى اختلفوا في إمكان ذلك.

كثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر، وإذا عورض بالنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ادعى الاختصاص، أو أعرض عن الجواب أو تحير في الأمر.

وسبب ذلك أنه قاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه، ولهذا يقول بعض هؤلاء : إنه لا يمكن حين تجلي الحق سماع كلامه.

ويحكى عن ابن عربي أنه لما ذكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي أنه جوز اجتماع الأمرين قال : نحن

---

(١٤) هذا إن تجلى له في نوم أو يقظة رؤيا حقيقة بغير سبب منه، ولا قدرة له على مشاهدتها كمشهد من نار جهنم فهو معذور.
وهذا أمر خارج عن الأحوال التي تقع من مجرد السماع والإيمان.

(١٥) الكثرة والجمع تعبيرات صوفية، فالتفرقة في الجمع التفرقة بين الخلق والخالق في غير حال الفناء، والكثرة في الوحدة إمكان مشاهدة السوى حال الفناء.

نقول له عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات»[١٦].

قال أبو عبدالرحمن: إن الله تعبد الخلق بالإيمان بالغيب، وحجب تجليه أن يكون عالم شهادة لأن ميزة العبد في الإيمان بالواقع المغيب بعد أن أقام الله له الحجة عليه.

وتجلي بعض الحقائق للمؤمن لا تتجاوز أن تكون معطى إيمانياً علمياً يحصل معه أعمال قلبية من خشية وخوف وشوق.

أما الموت والغشي والجنون فيحتمل أن يكون عن تجل حسي سمعي أو بصري، وهذا لم يدعه أفضل الخلق الرسل والصحابة وأتباعهم (إلا في حالات وحي ربط الله على قلوبهم فيها كتكليم موسى لربه، وكمشاهدات الإسراء والمعراج) فيحصل لهم أعراضه، فنجزم حينئذ أن ما عرض لسواهم إما إدعاء، وإما حقيقة من تجليات الجن صالحين وطالحين، فلا يكون ما حصل لأهل التجلي ميزة إيمانية.

ولهذا لما ساق شيخ الإسلام هذا الفناء وحكى أحكامه عن ابن عربي والسهروردي أعقبه بقوله: «وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق، أو سبحاني، أو مافي الجبة إلا الله إذا فني

---

(١٦) مجموع فتاوى الإسلام ابن تيمية ١٠ / ٣٣٨ – ٣٣٩.

بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه»[١٧].

قال أبو عبدالرحمن: هذا لا يصدر عن ذوي ميزة إيمانية.

وشيخ الإسلام أحسن الظن بأناس كان لهم فناء كصاحب منازل السائرين فحاول تمييز فنائهم بميزة شرعية عن الفناء الكفري فقال: «ولهذا اتفق العارفون على أن حال البقاء أفضل من ذلك وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق كما قال الله تعالى فيما روى عنه رسوله: ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي.

وفي رواية: وبي ينطق وبي يعقل.

فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه وشهد الحق على ما هو عليه.

وعامة ما تجده في كتب أصحاء الصوفية مثل شيخ الإسلام ومن قبله من الفناء هو هذا.

---

(١٧) مجموع الفتاوى ١٠ /٣٣٩.

مع أنه قد يغلط بعضهم في بعض أحكامه كما تكلمت عليه في غير هذا الموضع.

وفي الجملة فهذا الفناء صحيح وهو في عيسوية المحمدية، وهو شبيه بالصعق والصياح الذي حدث في التابعين.

ولهذا يقع كثير من هؤلاء في نوع ضلال، لأن الفناء عن شهود الحقائق مرجعه إلى عدم العلم والشهود.

وهو وصف نقص لا وصف كمال، وإنما يمدح من جهة عدم ما سواه، لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلى إرادته والفتنة به»[١٨].

قال أبو عبدالرحمن: الفناء اصطلاح غير شرعي لم يرد بمعناه نص شرعي أو سيرة عملية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإنما كان هو ــ أي الاصطلاح ــ ومعناه مما أحدثه أهل التصوف فلا نُنَزِّل عليه الحديث القدسي لأن الحديث القدسي عن هداية التوفيق والتسديد والمتاع الحسن، لأنهما ثمرة حب الله لعبده.

ومدلول الحديث أن من ثمار حب الله أن يشهد العبد الحقائق كما هي عليه، ويعتقد ويعلم ويعمل بمقتضى مراد الله

---

(١٨) مجموع الفتاوى ١٠ / ٣٤١ ــ ٣٤٢.

الشرعي.

فأي فناء ها هنا ؟!.

وصاحب منازل السائرين ليس صحابياً، وليس معصوماً فيجب أن نزن الرجال بأقوالهم وأعمالهم بميزان الشرع فما كان خطأ خطأناه ولا يحملنا حبهم على تسويغ الخطأ وتوجيهه باحتجاج على تسويغ لا ينطبق عليه.

والفناء بأعرافه ليس مما يلزمنا فنوفق بينه وبين حقائق الشرع.

وما ذكره شيخ الإسلام من فناء الإرادة ومدحه له غير مسلم إلا في الأمور التعبدية التي هي نقيض الأمور الشركية.

أما الأمور العادية التي هي من قدر المخلوقين وتسبباتهم فليست دعوى الفناء مطلوبة فيها.

ولا يكفي مجرد الشعور بالسوى، ولا يكون مازاد على الشعور بالسوى ناقصاً من التوحيد مفسداً للأعمال القلبية.

بل يشهد القلب المفعم إيماناً بالله السوى ويتعامل معه حباً وبغضاً وخوفاً ورجاء في الأمور العادية التي هي من قُدَرِ العباد لأن الله جعل من استخلافنا على الأرض أموراً تقوم على أفعالنا والتعاون فيما بيننا.

غاية ما هنالك أن مالا يقدر عليه إلا الله يفنى فيه عمّا سواه ليكون عبادة لله، فإن طُلب من السوى كان شركاً.

وهذا تطييب للخاطر باستعمال الفناء والسوى مادام معناهما بالمعنى المذكور.

والأرشد أن يقال : مالا يقدر عليه إلا الله لا يُطلب إلا من الله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون، وإنما كان مبادىء هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير وزرارة بن أوفى قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء

والسكر ما يضعف معه تمييزه حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد، وأبي الحسن النوري، وأبي بكر الشبلي وأمثالهم بخلاف أبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه.

بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ماهي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته، بل مستجيبة له قانتة له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له.

وهذه الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكمل من أهل العرفان.

ونبينا صلى الله عليه وسلم إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السماوات وعاين ما هنالك من الآيات وأوحي إليه ما أوحي من أنواع المناجاة أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا

ظهر عليه ذلك بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي صلى الله عليهم وسلم أجمعين»[١٩].

قال أبو عبدالرحمن: موسى عليه السلام طلب رؤية الله فأراه الله اندكاك المخلوق عند تجلي الخالق فكان في ذلك مجال للغشي.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فعرج به بلا طلب منه تكريماً له فثبت الله قلبه.

(١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠ / ٢٢٠ — ٢٢١.

٤ ـ بعض أخبار أهل الأحوال المستحدثة :

سياق شيخ الإسلام فيما مضى من كلامه، وذكره من شهق ومات كزرارة بن أوفى يدل على ثبوت ذلك تاريخياً عنده.

وقبله أبو محمد ابن حزم قال : «وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات»(٢٠).

وتحدث أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي عمن شهق فمات أو غشي عليه، فذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلاً يقرأ ﴿**إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع**﴾ [سورة الطور / ٧ــ٨] فصاح صيحة خرَّ مغشياً عليه فحمل إلى بيته فلم يزل مريضاً شهراً.

وذكر أن الشافعي أغمي عليه لما سمع قارئاً يقرأ ﴿**هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون**﴾ [سورة المرسلات / ٣٥ ــ ٣٦].

وذكر أن علياً ابن الفضيل بن عياض سقط مغشياً عليه لسماع التلاوة.

---

(٢٠) مداواة النفوس ضمن رسائل ابن حزم ١ /٣٦٩. وعن أخبار من شهق فمات انظر أسواق العشاق ورقة ٣٨ ــ ٤٢ عن حلية الأولياء، وابن أبي الدنيا ومغلطاي والسراج وانظر المستدرك ٢ /٤٩٤ ــ ٤٩٥.

وذكر موت أبي جهير الضرير البصري[٢١] وهو يقرأ على صالح المري، وذكر موت زرارة بن أبي أوفى، ولم يسند هذه الأخبار، ولم يحلها إلى مصادرها[٢٢].

قال أبو عبدالرحمن : ما ذكره من صياح عمر وغشيه يتنافى مع ما ذكره ــ وما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً ــ من سلامة الصحابة من هذه الحال.

ورويت عن عمر رضي الله عنه هذه الحادثة بأخبار لا تصح وليس فيها صياح أو غشي.

قال ابن كثير : «قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا أبي : حدثنا موسى بن داوود : عن صالح المري : عن جعفر بن زيد العبدي قال : خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿**والطور**﴾ حتى بلغ ﴿**إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع**﴾.

قال قسم ورب الكعبة حق !!.. فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعوده الناس

---

(٢١) ورد في كشف القناع للقرطبي باسم أبو جهين، وقال محقق الكتاب : لم أعثر له على ترجمة.

(٢٢) كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ص ١٨٤ ــ ١٨٥.

لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه[٢٣].

وقال الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن : حدثنا محمد بن صالح : حدثنا هشام بن حسان : عن الحسن : أن عمر قرأ ﴿**إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع**﴾ فربا لها ربوة عيد منها عشرين يوماً»[٢٤].

وأخرج أحمد بن حنبل في الزهد عن مالك بن مغول قال : قرأ عمر ﴿**والطور وكتاب مسطور في رق منشور**﴾.

قال : قسم... إلى قوله : ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾ فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه ذلك[٢٥].

قال أبو عبدالرحمن : مرة كان القارىء رجلاً، ومرة كان القارىء عمر.

ومرة صاح وخر مغشياً عليه، ومرة حمل إلى منزله، ومرة استند إلى حائط ومضى إلى منزله.

ومرة بكى فحسب.

ومرة عيد شهراً، و مرة عيد عشرين يوماً، ومرة عيد من

---

(٢٣) إذن كيف عرف جعفر بن زيد علة مرضه ؟!.

(٢٤) تفسير ابن كثير ٦ /٤٣٠.

(٢٥) الدر المنثور للسيوطي ٦ /١١٨.

وجهه فحسب.

قال أبو عبدالرحمن: فإن صح أن للقصة أصلاً فهي عن حال الصحابة رضوان الله عليهم المعهودة من البكاء والخشية.

قال أبو عبدالرحمن: وأما زرارة بن أبي أوفى أبو حاجب العامري قاضي البصرة رحمه الله فقد سمع عدداً من الصحابة وحدث عنهم.

صحح الذهبي سبب وفاته سنة ٩٣هـ وأنه كان يصلي بالناس الفجر في مسجد بني قشير فلما قرأ ﴿**فإذا نقر في الناقور**﴾ [سورة المدثر /٨] خرَّ ميتاً(٢٦).

وأسند أبو نعيم الخبر إلى عون بن ذكوان وبهز بن حكيم وكلاهما شاهد عيان(٢٧).

وأبو بشر صالح بن بشير المري القاص من وعاظ أهل البصرة عايد ضعفوه في رواية الحديث.

---

(٢٦) سير أعلام النبلاء ٤ /٥١٦.. قال أبوعبدالرحمن: يكون مات فجأة بمصادفة تلاوة هذه الآية الكريمة. وأعلم من مات ساجداً، ومن سقط من الصلاة وغشي عليه ثم مات في غير حال تلاوة مثل محمد بن مطر وسليمان بن علي من جماعتي أهل شقراء رحمهما الله. ولهذا عبر ابن سعد عن وفاة زرارة فقال: مات فجأة سنة ٩٣ هـ.

قال أبو عبدالرحمن: ولم يزد على ذلك.

(٢٧) حلية الأولياء ٢ /٢٥٨.

قال عفان : كان شديد الخوف من الله كأنه ثكلى إذا قـص.

وقال ابن عدي : قاص حسن الصوت عامة أحاديثه منكرة... أتي من قلة معرفته بالأسانيد.

وقال ابن الأعرابي : كان الغالب على صالح كثرة الذكر والقراءة بالتحزين.

ويقال : هو أول من قرأ بالبصرة بالتحزين.

ويقال : مات جماعة سمعوا قراءته.

توفي سنة ١٧٢هـ أو ١٧٦هـ[٢٨].

وقال أبو نعيم : «حدثنا محمد بن أحمد بن عمر : حدثنا أبي : حدثنا عبدالله بن محمد بن عبيد : حدثنا عبدالرحيم بن يحيى الديلمي : حدثني عثمان بن عمارة : عن صالح المري. قال : قدم علينا ابن السماك مرة فقال : أرني بعض عجائب عبادكم ؟.

فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فدخلنا، فإذا رجل يعمل خوصاً له فقرأت ﴿**إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار**

(٢٨) سير أعلام النبلاء ٨ /٤٧.

يسجرون﴾ فشهق الرجل شهقة فإذا هو قد يبس مغشياً عليه، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله !.

وذهبنا إلى آخر فاستأذنا عليه، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا، فدخلنا فإذا رجل جالس في مصلى له فقرأت **﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾** فشهق شهقة فبدر الدم من منخره ثم جعل يتشحط في دمه حتى يبس !.

فخرجنا من عنده وتركناه على حاله حتى أدرته على ستة أنفس كل يخرج من عنده وهو على هذه الحالة، ثم أتيت به السابع فاستأذنت فإذا امرأة له من وراء الخص تقول : ادخلوا، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاة فسلمنا فلم يعقل سلامنا، فقلت بصوت عال : إن للحق غداً مقاماً.

فقال الشيخ : بين يدي من ويحك ؟.

ثم بقي مبهوتاً فاتحاً فاه شاخصاً بصره يصيح بصوت له ضعيف حتى انقطع.

فقالت امرأته : اخرجوا عنه فإنكم ليس تنتفعون به الساعة.

فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله عز وجل.

وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتاً

متحيراً لا يؤدي فرضاً فلما كان بعد الثلاثة عقل»[٢٩].

قال أبو عبدالرحمن : هاته حكايات عن قاص لا يقرها شاهد الواقع والحال.

وقال أبو نعيم أيضاً : «حدثنا عبدالله بن محمد بن جعفر : حدثني عبدالله بن عبدالوهاب : عن محمد بن زكريا : حدثنا الحسن بن حسان : قال : كنا يوماً عند صالح المري وهو يتكلم ويعظ، فقال لرجل حدث بين يديه : اقرأ يا بني.

فقرأ الرجل ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع**﴾ فقطع عليه صالح القراءة فقال : وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والطالب له رب العالمين ؟!.

إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم حفاة عراة مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم ذائبة أجسامهم، ينادون: يا ويلاه يا ثبوراه.. ماذا نزل بنا، ماذا حل بنا، أين يذهب بنا ماذا يراد منا ؟!!.

والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يجرون على وجوههم ويسحبون عليها منكبين، ومرة يقادون إليها عنتاً

---

(٢٩) حلية الأولياء ٦ /١٦٩ ــ ١٧٠.

مقرنين من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت.

إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا يستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك.

ثم نحب وصاح يا سوء منظراه... ويا سوء منقلباه... وبكى وبكى الناس(٣٠).

فقام شاب به تأنيث فقال: أكُلّ هذا في القيامة يا أبا بشر؟.

قال: نعم والله يا ابن أخي، وما هو أكبر من ذلك!!

ولقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منها إلى كهيئة الأنين من المدنف.

فصاح الفتى: إنا لله... واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة.. ويا أسفي على تفريطي في طاعتك يا سيداه.. واأسفاه على تضييع عمري في دار الدنيا!!.

---

(٣٠) قال أبو عبدالرحمن: إذا كانت دروس الوعاظ والصلحاء بهذا النحيب والتخويف وغض النظر عن المبشرات فسيدخل الهلع في قلوب العامة الذين يحضرون الدرس على طول السنين.

ثم بكى واستقبل القبلة ثم قال : اللهم إني استقبلك في يومي هذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم فاقبلني على ماكان مني واعف عمّا تقدم من عملي وأقلني عثرتي وارحمني ومن حضرني، وتفضل علينا بجودك أجمعين يا أرحم الراحمين، لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي، وإليك أنبت بجميع جوارحي صادقاً بذلك قلبي، فالويل لي إن أنت لم تقبلني، ثم غلب فسقط مغشياً عليه، فحمل من بين القوم صريعاً يبكون عليه ويدعون له(٣١).

وكان صالح كثيراً ما يذكره في مجلسه يدعو الله له ويقول : بأبي قتيل القرآن.. بأبي قتيل المواعظ والأحزان، فرآه رجل في منامه فقال : ما صنعت ؟.

قال : عمَّتني بركة مجلس صالح فدخلت في سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء.

قال : وكنا في مجلس صالح المري فأخذ في الدعاء فمر رجل مخنث فوقف يسمع الدعاء ووافق صالحاً يقول : اللهم اغفر لأقسانا قلباً، وأجمدنا عيناً، وأحدثنا بالذنوب عهداً.

---

(٣١) قال أبو عبدالرحمن : ابتهال هذا الشاب دليل على حضور قلب، ودليل على تعلقه بالرجاء فكيف صرع ؟!.

فسمع المخنث، فمات، فرؤي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟.

قال غفر الله لي.

قيل : بماذا ؟.

قال : بدعاء صالح المري... لم يكن في القوم أحد أحدث عهداً بالمعصية مني، فوافقت دعوته الإجابة فغفر لي»(٣٢).

وقال أبو نعيم أيضاً : «حدثنا أبي : حدثنا أبوالحسن : حدثنا أبوبكر : حدثنا محمد بن الحسين : حدثنا أحمد بن إسحاق الحضرمي. قال : سمعت صالحاً المري يقول : للبكاء دواع بالفكرة في الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب، وإلا نَقَلْتَها إلى الموقف وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت وإلا فاعرض عليها التقلب بين أطباق النيران.

قال : ثم بكى وغشي عليه وتصايح الناس»(٣٣).

وقال : «حدثنا إبراهيم بن محمد : حدثنا عبيدالله بن جرير بن جبلة : حدثني عمي عباد بن جرير وغيره من المشايخ : قال : كنا نجلس إلى صالح المري فكان أول ما يبتدىء فيقول :

(٣٢) حلية الأولياء ٦ / ١٦٥ ــ ١٦٧.

(٣٣) حلية الأولياء ٦ /١٦٧.. قال أبو عبدالرحمن : هذا نموذج لقيام القصاص بتطبيع الناس على الحزن والقنوط.

الحمد لله، فإذا أعين الناس قد سالت»[٣٤].

قال أبو عبدالرحمن : وقال نذير حمدان في تحشيته على سير أعلام النبلاء : «القاص هو الواعظ الذي يجلس إلى الناس فيذكرهم بسرد قصص النبيين والصالحين، وشرحها بأسلوب مشوق محبب، واستنباط العبر منها، وفي ذلك عبرة لمعتبر، وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع.

وهو عمل سائغ يثاب عليه فاعله إذا كان المتصدي له عالماً بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصدق في مروياته، ويحترز عن إيراد القصص الخرافية، والأحاديث المكذوبة، والحكايات التي تناقص ما جاء في كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم»[٣٥].

قال أبو عبدالرحمن : ومن الشرط أيضاً أن لا يحمل الناس على القنوط.

وأما ابن فضيل فقال عنه أبو نعيم : «حدثنا محمد بن علي : حدثنا أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبدالصمد بن يزيد. قال : سمعت إسماعيل الطوسي يقول : بينا نحن ذات يوم عند

(٣٤) الحلية ٦ /١٦٨ .. قال أبو عبدالرحمن : لذلك التطبع أصبح البكاء عادة قبل المواعظ !!.

(٣٥) سير أعلام النبلاء ٨ /٤٦ ــ ٤٧ (حاشية).

الفضيل[٣٦] مغشياً عليه، فقال الفضيل : شكر الله لك ما قد علمه منك.

قال : وسمعت إسماعيل الطوسي أو غيره قال : بينما نحن نصلي ذات يوم الغداة خلف الإمام ومعنا علي بن فضيل فقرأ الإمام ﴿**فيهن قاصرات الطرف**﴾ فلما سلّم الإمام قلت : ياعلي أما سمعت ما قرأ الإمام ؟.

قال : ما هو ؟.

قلت : ﴿**فيهن قاصرات الطرف**﴾ و ﴿**وحور مقصورات في الخيام**﴾.

قال : شغلني ما كان قبلها ﴿**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران**﴾[٣٧].

وقال الذهبي : «قال إبراهيم بن الحارث العبادي : حدثنا عبدالرحمن بن عفان : حدثنا أبوبكر بن عياش. قال : صليت خلف فضيل بن عياض المغرب وابنه علي إلى جانبي، فقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ فلما قال ﴿**لترون الجحيم**﴾ سقط علي على وجهه مغشياً عليه، وبقي فضيل عند الآية.

---

(٣٦) قال أبو عبدالرحمن : في العبارة نقص، ولعل تمامها : فسقط علي (يعني ابن فضيل بن عياض).

(٣٧) حلية الأولياء ٨ /٢٩٧ ــ ٢٩٨

فقلت في نفسي : ويحك أما عندك من الخوف ما عند الفضيل وعلي، فلم أزل أنتظر علياً، فما أفاق إلى ثلث من الليل بقي.

رواها ابن أبي الدنيا : عن عبدالرحمن بن عفان.. وزاد وبقي فضيل لا يجاوز الآية، ثم صلى بنا صلاة خائف، وقال : فما أفاق إلى نصف من الليل.

قال ابن أبي الدنيا : حدثني عبدالصمد بن يزيد : عن فضيل بن عياض قال : بكى علي ابني، فقلت : يا بني ما يبكيك ؟.

قال : أخاف ألا تجمعنا القيامة.

وقال لي ابن المبارك : يا أبا علي ما أحسن حال من انقطع إلى الله ؟!.

فسمع ذلك علي ابني، فسقط مغشياً عليه.

مسدد بن قطن : حدثنا الدورقي، وحدثنا محمد بن نوح المروزي : حدثنا محمد بن ناجية قال : صليت خلف الفضيل، فقرأ ﴿**الحاقة**﴾ في الصبح، فلما بلغ إلى قوله ﴿**خذوه فغلوه**﴾ غلبه البكاء فسقط ابنه علي مغشياً عليه.. وذكر الحكاية»[٣٨].

---

(٣٨) سير أعلام النبلاء ٨ /٤٤٣ ــ ٤٤٤.

وقال الذهبي : أنبأني المقداد القسي : أخبرنا أحمد بن الدبيقي : أخبرنا أبوبكر الأنصاري : أخبرنا أبوبكر الخطيب : أخبرنا أبوالحسن بن بشران : أخبرنا علي بن محمد البصري : سمعت أباسعيد الخراز : سمع إبراهيم بن بشار يقول : الآية التي مات فيها علي بن الفضيل في الأنعام ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد**﴾ [سورة الأنعام /٢٧] مع هذا الموضع مات وكنت فيمن صلى عليه، رحمه الله»[٣٩].

وقال أبو نعيم : «حدثنا أبو بكر بن مالك : حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل : حدثني الحسن بن عبدالعزيز الجروي : حدثنا محمد بن أبي عثمان. قال : كان علي ــ يعني ابن الفضيل ــ عند سفيان بن عيينة يحدث سفيان بحديث فيه ذكر النار، وفي يد علي قرطاس في شيء مربوط فشهق شهقة وقع ورمى بالقرطاس[٤٠] ــ أو وقع من يده ــ فالتفت إليه سفيان وقال : لو علمت أنك ههنا ما حدثت به.

فما أفاق إلا بعد ما شاء الله»[٤١].

---

(٣٩) سير أعلام النبلاء ٨ /٤٤٦.
(٤٠) هكذا في الأصل، ولعل الصواب : فشهق شهقة فوقع ورمى.
(٤١) حلية الأولياء ٨ /٢٩٨ وسير أعلام النبلاء ٨ /٤٤٥.

وقال : «حدثنا أبو محمد بن حيان : حدثنا عمر بن بحر قال : سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول : سمعت أبا سليمان يقول : كان علي بن فضيل لا يستطيع أن يقرأ القارعة ولا تقرأ عليه»[٤٢].

---

(٤٢) حلية الأولياء ٨ /٢٩٩ وسير أعلام النبلاء ٨ /٤٤٥.

٥ ــ عود على بدء
(أو حقيقة القول في الخشوع والأحوال) :

الذي في القرآن الكريم من الثناء على أهل السماع المبارك أنهم مأمورون بالإنصات والسماع، وأنهم يخرون للسجود، وتفيض أعينهم من الدمع، وتوجل قلوبهم، وتقشعر جلودهم.

وفيه عكس ما يجلب الغشي والموت ويحقق الإيمان، لأن الإيمان معرفة وطمأنينة لا يكون معها الصياح والغشي والموت.

من ذلك قوله تعالى : ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾.

جاء هذا بعد السياق عن وجل القلوب، ومن زاد إيمانه وتوكل على الله لا يموت خوفاً.

وجاء في الأخرى : ﴿**فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾ وليس مع البشرى غشي أو موت.

وقال تعالى : ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ وقال تعالى بعد أن ذكر قشعريرة الجلد : ﴿**ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾.

ولم يذم الله من لم يغش عليه عند سماع القرآن، أو لم

يضطرب، أو لم يمت.

وإنما ذم المعرضين كأنهم حمر مستنفرة، الصادين عن السماع استكباراً، والصادين عن تعقل معانيه لو قدر أنهم سمعوا الكلمات.

ونهى عن قسوة القلوب المنافية للخشوع، وقد بينت معنى الخشوع في كتيب «البكاء المبرور» وهو شيىء غير الاضطراب والموت والغشي.

قال أبو عبدالرحمن : وربما قال قائل : أينهى الإنسان عن الموت أو الغشي أو الاضطراب أو الصياح وذلك أمر قهري ؟!!.

قال أبو عبدالرحمن : إن تسبب ذلك عن سلوك غير شرعي يصل إلى حد الوجد الصوفي والاصطلام فمن المحقق أن وراء ذلك وسطاء من الجن يخيلون لذوي الشطح بأضواء وأنوار وملامح وأصوات على أنها الحق جل جلاله، أو عن الحق، أو على أنهم ملائكة نورانيون.

فيكون ما صدر عن غير الشرعي غير شرعي.

وقد يتسبب ذلك عن تطبع بأن لا يسحضر الإنسان إلا آيات العذاب، ويستحوذ على قلبه أن النجاء غير محقق إلا

للأنبياء ومن يلي درجتهم، ثم يعظم له الشيطان سيئاته فيزداد خوفه ويكاد يتحقق بأن مصيره مصير أهل البوار.

فما تسبب عن ذلك من موت أو غشي أو اضطراب أو صياح فهو غير شرعي، بل هو خلاف الشرع، لأن المؤمن مطلوب منه الجمع بين الخوف والرجاء، والموازنة بين عمله وبين ماهو مطلوب منه شرعاً، وهذا هو محاسبة النفس، وتجديد التوبة كما مر في صدر هذا الفصل عن أحوال أهل السماع المشكور.

والذي يصعق أو يموت لم يحقق الإيمان القلبي الصحيح الذي يحصل به البشرى والتوكل وزيادة الإيمان واطمئنان القلب.

والفاصل في ذلك قوله تعالى : ﴿**تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾ ولم يعقب القشعريرة يوس الجلد أو كسر القلب بالموت أو الغشي، وإنما يعقبه الاستعداد للتقبل إذ قال تعالى : ﴿**ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾.

ويجب اليقين بأن الغشي والصياح والاضطراب والجنون والموت ليست مطالب شرعية، لأن المطلوب الخشية والخشوع والبكاء ولين القلب والقشعريرة.

وعلى هذا فأصحاب تلك الأحوال ليسوا أكمل حالاً من

الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن ثم فأصحاب تلك الأحوال لا يكونون قدوة، ويبقى الخلاف هل هم معذورون فيما وصلوا إليه من عجز عقلي أو جسمي أو موت أم لا ؟.

ويكون القول بعذرهم مرهوناً بإمكان وقوع هذه الأحوال دون يأس وقنوط وتصور عذاب محقق.

ويمنع من إمكان وقوع هذه الأحوال دون يأس محرم أن تعادل الخوف والرجاء والجد في العمل ومحاسبة النفس والطمع في رحمة الله وشهود المؤمن في نفسه آثار الحياة الطيبة في الحياة الدنيا لا ينتهي بالعبد إلى صياح أو غشي أو جنون أو موت.

ولا أستثني من هذا المنع إلا احتمال غلبة الوسواس بتحقق العذاب وفقدان الأمل فحينئذ تقع الحال ولا يكون صاحبها متبعاً.

والأحوال المستحدثة ذكر ابن تيمية فيما سلف من كلامه أن بعض السلف أنكرها لبدعيتها.

وحكى عن الجمهور عدم الإنكار إذا كان سبب هذه الأحوال غير محظور.

قال أبو عبدالرحمن : الشرط في هذه الواقعة متصور عقلاً لا

واقعاً، لأن تلك الأحوال إنما تكون عند تغليب الخوف والوعيد وفقدان البشرى والطمأنينة والتطبع على الحزن والوجل.. وهذا سبب غير محمود شرعاً.

ويدلك على تغليب اليأس ما مر في أخبار من شهق فمات كتعلق بعضهم بقوله تعالى ﴿**يرسل عليكما شواظ من نار**﴾ حيث شغلته عن قوله تعالى ﴿**حور مقصورات في الخيام**﴾.

قال أبو عبدالرحمن: وأكثر ما ذكر عن الموت بشهقة حكايات.

فإن صح منها شيىء فهو دليل على أن الحزن يقتل إذا بلغ نهايته.

وهؤلاء تدربوا على الحزن بوعاظ قصاص يقرؤون بالتحزين كصالح المري، ويكثِّفون جانب التخويف، ولا يشرون فيذكرون جانب الرحمة، مع غلبة اليأس والقنوط عند السِّمِيعة.

وفي تعليقاتي على أخبار صالح المري المارة الذكر بعض الإضاءات.

قال أبو عبدالرحمن: وتمييز حال الصحابة عن أحوال من بعدهم قرره القرطبي وتابعه ابن تيمية فيما أسلفته من كلامه.

ومما يضاف من كلامهما لنكون منه على ذكر في هذا

الاختتام قول أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعد أن ذكر خشوع الصحابة رضي الله عنهم، ثم ذكر حال من جاء بعدهم ممن يغشى عليه أو يشهق ويموت، «غير أنهم قد أفرط على بعضهم الواردات، فألحقتهم بالأموات، وربما صعق بعضهم صعقات منكرات، أوجبت لهم غشوات»[٤٣].

قال أبوعبدالرحمن: وسجل هذه الظاهرة شيخ الإسلام ابن تيمية فقال عن سماع الذكر الحكيم: «وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد، وهذا مذكور في القرآن، وهذه الصفات موجودة في الصحابة.

ووجدت بعدهم آثار ثلاثة: الاضطراب والصراخ، والإغماء، والموت في التابعين.

وبالجملة فهذا السماع هو أصل الإيمان، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى، وأفلح، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقي»[٤٤].

---

(٤٣) كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ص ١٨٤.

(٤٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١ /٥٦٢.

قال أبوعبدالرحمن : ما حدث من الاضطراب والإغماء والصراخ والموت يرد عليه التساؤلات التالية :

١ ـ ما صح هل سببه الخوف من الله ؟.

٢ ـ ما صح مما سببه الخوف من الله فهل ذلك النوع من الخوف مأمور به أم لا ؟.

وهل هو مقتضى الموعظة من الشرع أم عن تطبُّع وتعيين مناخ يهيؤه القصاص ؟.

أي هل نحن مأمورون بالتطبع على الحزن والخوف حتى لا نشعر إلا بمصير أهل البوار ؟!.

ومن ثم فهل يكون المدرَّب على الإغماء إلى الموت مأجوراً أجرين، أو معذوراً وله أجر ولا يكون أسوة، أم مأزوراً ؟.

إن تحقيق أجوبة هذه التساؤلات عماد التبصر في خشية الصحابة وصعق أناس جاءوا بعدهم والله المستعان، وأحسب أن هذا الكتيب لامس هذه الجوانب بما يقنع.

وفهم من كلام الشيخين القرطبي وابن تيمية أنهما لا يصححان دعاوى الموت بالشهقة والغشي في عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

قال أبو عبدالرحمن : وقد وردت في ذلك نصوص

لا تصح.

قال أبو نعيم : «حدثنا أبي : حدثنا أبو الحسن بن أبان : حدثنا أبوبكر بن عبد : حدثنا شعبة بن أبي سليمان الواسطي : حدثني محمد بن يزيد بن خنيس : عن عبدالعزيز بن أبي رواد قال : لما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾** [سورة التحريم / ٦] قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم [ذات يوم على أصحابه فخر فتى مغشياً عليه فوضع النبي صلى الله عليه وسلم][٤٥] يده على فؤاده فإذا هو يتحرك[٤٦]، **فقال: يا بني قل: لا إله إلا الله.. فقالها، فبشره** بالجنـة.

فقال أصحابه : يارسول الله لمن هذا ؟.

قال : أما سمعتم قوله **﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾**[٤٧].

قال أبوعبدالرحمن : هذا خبر لا يصح، وبين رسول الله

---

(٤٥) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السياق من أسواق العشاق ص ٣٨ /ب الذي نقل عن أبي نعيم.

(٤٦) في الأصل : يحرك.. والتصحيح من أسواق العشاق.

(٤٧) حلية الأولياء ٨ /١٩٥.

صلى الله عليه وسلم وابن أبي رواد ثلاثة أجيال.

قال البقاعي : «وذكره المنذري في أواخر كتابه الترغيب في فضل الخوف، وقال رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد.. كذا قال.. انتهى قول المنذري.

وذكره الحافظ مغلطاي من عند ابن أبي الدنيا وروى بسنده إليه قال : حدثني حسين بن يحيى : حدثني حازم بن حبلة : عن[٤٨] أبي نصرة العبدي : عن أبي سيار : عن الحسن : عن حذيفة رضي الله عنه قال : كان شاب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأتاه فلما نظر إليه الشاب قام إليه فاعتنقه وخر ميتاً.

فقال صلى الله عليه وسلم : جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فلذ كبده، والذي نفسي بيده لقد أعاذه الله منها. من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه»[٤٩].

قال أبو عبدالرحمن : لو لم يكن هاهنا إلا عنعنة الحسن وإرساله لكفى.

---

(٤٨) في الأصل : بن أبي.. وأبو نضرة المنذر بن مالك.

(٤٩) أسواق العشاق ٣٩ /أ.

وقال الحاكم : أخبرنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الصفار : حدثنا أبوبكر بن أبي الدنيا : حدثني محمد بن إسحاق بن حمزة البخاري : حدثنا أبي : حدثنا عبدالله بن المبارك : أنبأنا محمد بن مطرف : عن أبي حازم (أظنه عن سهل بن سعد) أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار، فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت.

فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فجاءه في البيت، فلما دخل عليه اعتنقه الفتى وخر ميتاً.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : جهزوا صاحبكم فإن الفرق فلذ كبده.

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٥٠).

قال أبو عبدالرحمن : ابن مطرف وثقة الجمهور، وقال ابن حبان في الثقات : يغرب(٥١).

وأبو حازم هو سلمة بن دينار أبو حازم الأعرج التمار المدني القاص.

ولم يسمع أبو حازم من أحد من الصحابة رضوان الله عليهم

---

(٥٠) المستدرك ٢ /٤٩٤، وتابعه الذهبي.

(٥١) تهذيب التهذيب ٩ / ٤٦١ ـــ ٤٦٢.

غير سهل رضي الله عنه، وهو عابد ثقة(٥٢)، وأبوحازم رحمه الله لم يحقق في هذا الإسناد أن روايته عن سهل.

ومن قبل عبدالله بن المبارك في هذا الإسناد يحتاج إلى مراجعة.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المرسلين والنبيين وخاتمتهم محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرياض / دارة داوود

أبو عبدالرحمن محمد بن عمر ابن عقيل الظاهري

ــ عفا الله عنه ــ

---

(٥٢) تهذيب التهذيب ٤/١٤٣ ــ ١٤٤.

رواية ودراية

(١)

ألفـــه

محمد بن عمر ابن عبدالرحمن العقيل

(أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري)

- عفا الله عنه -

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

مكتبة و دار ابن حزم للنشر والتوزيع

[في صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : عن النبي ﷺ : أنه كان يدعو بهذا الدعاء : اللهم اغفر لي خطيئتي ، وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني .. اللهم اغفر لي جِدِّي وهزلي ، وخطئي وعمدي – وكل ذلك عندي – .. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني .. أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيئ قدير .] .

مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع

المركز الرئيس[1] / الرياض : شارع السويدي العام - هاتف وفاكس ٤٢٧٥١١٧

العليا - شارع موسى بن نصير - هاتف وفاكس٤٦٢١٥٤٢

الطبعة الأولى عام ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م

ط م نجد التجارية / الرياض

---

(١) قال أبو عبدالرحمن : الرئيسي جائزة ؛ لأن ياء النسب تجعل المنسوبَ واحداً من المتصفين .. والرئيس أبلغ ؛ لدلالتها على الواحدية في الوصف .

بسم الله الرحمن الرحيم

* * *

[عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في صحيح مسلم قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال : أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ .. فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ .. قال : يسبح مئة تسبيحة ؛ فيكتب له ألف حسنة ، أو يُحط عنه ألف خطيئة].

* * *

[قال الطرطوشي عن بدع أصحاب الألحان في كتاب الله : «ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً ؛ فقالوا : اللحن الصقلبي ؛ فإذا قرؤوا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [سورة الجاثية/ ٣٢] يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل، ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل، ويرجِّعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي ورقصَ الأرجل .. كل ذلك على نغمات متوازنة .

الحوادث والبدع

ص٥٩]

ح دار ابن حزم للنشر والتوزيع ، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الظاهري ، أبو عبدالرحمن ابن عقيل
الدعاء رواية ودراية .– الرياض
٦٦ ص ؛ ٢١ سم
ردمك : ٠– ٥٠ – ٧٩٥ – ٩٩٦٠
١ – الحديث – رواية ٢ – الأدعية والأوراد أ – العنوان
ديوي ٢٣١ ٢٢/٢٩٥٢
رقم الإيداع : ٢٢/٢٩٥٢

الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)

* * *

[قال الطرطوشي عن البدع: «وكذلك تقديم اللحم على الفاكهة والله تعالى يقول: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة الواقعة / ٢٠ – ٢١] والأولى استعمال أدب القرآن ، وتقديم ما قدم الله ، وتأخير ما أخر الله !!» .

الحوادث والبدع ص١١٩.

قال أبو عبدالرحمن : هذا استدلال فاسد، ولو صح أن الواو للترتيب لكانت أحكام الآخرة كونية ، وأحكام الدنيا شرعية .] .

الدعـاء

رواية ودراية :

(١)

[هذه سلسلة مباركة في الدعاء المطلق .. والدعاء المقيد بزمان ، أو مكان ، أوحال (أي الدعاء الموظف) .. رواية ، ودراية ، وتأصيلاً .].

* * *

[في الصحيحين وبعض السنن : عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء .. حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جُهَّالاً ؛ فَسُئِلُوا ؛ فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا .] .

ألفه

محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل

(أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري)

- عفا الله عنهم -

[قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا .. اللهم متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقواتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .. رواه أبو داود ، والترمذي، والنسائي ، والحاكم .

قال أبو عبدالرحمن : هو حديث راجح الثبوت ؛ لأنه حسن ؛ ولذا يجب عملاً إدراجه في الأدعية المشروعة .. وجرى عرف من أدركتهم من أجيالٍ على الدعاء به في القنوت ، وذلك حسن ؛ لأن القنوت من أحوال التوسع بالدعاء المشروع .].

فهرس إجمالي

* * *

[أسند الشيخان في صحيحيهما إلى ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم .].

[في صحيح البخاري : أن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن .. يقول : إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ؛ فإنك تَقْدِرُ ولا أقدِرُ ، وتعلمُ ولا أعلمُ ، وأنت علام الغيوب .. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمي حاجته - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال : عاجله وآجله) : فاقدره لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه .. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجله وآجله - : فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم أرضني به.] .

الاستفتاح :

اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن .. أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق، ولقاؤك الحق ، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق ، والساعة حق .. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ؛ فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت .. أنت إلهي لا إله إلا أنت .. أحمدك وأشكرك يا من خلقت المكلفين لعبادتك ؛ فلم يهلك على الله إلا هالك؛ لما غمر به عباده من بره وإحسانه وإقامة حجته ، ثم لم يعامل أكفر الكفار إلا بعدله .. وهو سبحانه سهَّل على عباده سبل النجاة – إن انتفعوا بعقولهم – ؛ فجعل الدعاء العبادي ملاذاً وملجأً لكل حائر يطلب هداية البيان والإيضاح، ولكل مغلوب بشهواته وأهوائه يطلب هداية التوفيق والتسديد، ولكل مقصر يطلب المعونة والرحمة، ولكل متشبث بشيئ من العمل الصالح يطلب القبول والمضاعفة، ولكل مبتلى يبتغي عافية ، ولكل فقير يبتغي الغنى ، ولكل خائف يطلب الأمن .. إلخ .. إلخ.. بل أوجب عليهم هذا

الدعاء الذي هو سبب سعادتهم.. قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [سورة غافر/ ٦٠] .. وجاء كتاب الله حافلاً بالأمر بالدعاء ، وبتعليم صيغ منه مفرقة في سوره.. ينتفع بها من أعطى كتاب الله حقه من التلاوة والتعبد ، بل جعل ذلك في سورة ميسرة لا يعذر مسلم بجهلها ، وهي سورة الفاتحة في قول الله تعالى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾.. وصلوات الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبدالله القائل: ليس شيئ أكرم على الله من الدعاء .. أسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه : عن رسول الله ﷺ كل من : الترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم .. وهو حديث صحيح .. اللهم صل عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

[روى ابن ماجه ، وغيره بإسناد صحيح : عن جابر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: ماء زمزم لما شُرِبَ له.].

المقدمة :

الدعاءُ من ذكر الله سبحانه وتعالى .. وذكر الله سبحانه يكون بحمد الله الذي هو ثناءٌ عليه بصفات الكمال ، وشكر له على نعمه .. ويدخل في الحمد تسبيح الله ، وهو تنزيهه اعتقاداً وقولاً عن كل نقص.. أما هو سبحانه فمقدَّس غني عن تقديس غيره ، وإنما جعل الله تسبيح الخلق وحمدهم من أفضل العبادات ؛ لينالوا ثواب ذلك : من أجر مضاعف ، وحطٍّ سيِّئات.. ويدخل في الحمد التهليل والتكبير ؛ لأن ذينك اعتراف بكماله ؛ فذلك حمد له .. كما أنهما تسبيح لله ؛ لأن الحمد يعني نفي النقص ضمناً كالتكبير ، أو نصاً كالتهليل ؛ لأن نفي مستحق للعبادة غير الله تسبيحٌ لله عن الند والشريك .

وذِكْر الله – وإن لم يتضمن أي صيغة دعاءٍ – هو دعاءٌ في ذاته بالنص والاستنباط .. أما النص فوارد

فيمن شغله ذكر الله عن مسألته ، وأما الاستنباط فآت من ذكر الله بأسماءٍ وصفات بذكرها يكون العبد في بركاتِ مدلولها إنعاماً واستعاذةً واتكالاً كالرحمن الرحيم الحي القيوم القادر الجبار .. إلخ ، وآتٍ بمعونة نصوص أخرى كذكر الله الذي يُستشفى به من داءٍ أو أدواءٍ أو يُتحصن به من الشيطان والهوى .. إلخ ؛ فورود النص بتوظيف الذكر لهذا هو دعاءٌ في النتيجة .. ومثله شكر الله فقد ورد النص بزيادة الشاكر ؛ فالشكر متضمن لطلب المزيد .. ومن ذِكْر الله ما هو دعاءٌ نصاً بمدلول الصيغة كصيغة : اللهم ، ويا حي ياقيوم .. ويدخل في ذلك الاستعاذة والاستغفار ؛ لأنه طلب للإقالة من الذنب.. ويُشفع به إعلانُ التوبة دليلاً على صدق العبودية في الاستغفار .. ويدخل في ذلك السلام ورده فهما دعاءٌ ، وكذلك الصلاة والسلام على النبي ﷺ .. وذكر الله بأنواعه منه ما هو مطلق ، ومعنى إطلاقه أنه

غير مقيد بوقت ولا حال ولامكان .. ومنه ما هو غير مطلق، وهو الموظف في أوقات وأحوال.. ومن الذكر غير المطلق ما هو دائم متكرر وهو الدعاءُ الموظف في أوقات متكررة من الليل والنهار ، وفي أحوال متكررة من يقظة ونوم وصلوات ودخول وخروج وجماع .. إلى آخر ما هو دائر في العادة من الحياة اليومية .. ومنه ما يكون تكرُّرُه كل شهر كالدعاءِ عند رؤية الهلال ، ومنه ما يكون تكرره كل عام كالذكر في ليلة القدر ويوم عرفة والأيام المعدودات من شهر الحج .. ومنه أحوال موسمية كالدعاءِ عند رؤية البَشَرة ، وسماع الرعد.. ومنه حالات متكررة عند فرد دون آخر كالذكر الموظف عند سماع الديك ونهيق الحمار .

ومن ذِكْر الله المقيد ما وُظِّف للنوازل سواءً أكان عاماً كالدعاء على الكافر الغاشم في القنوت ، أم خاصاً بالفرد أو من يتعلق به من أهل وولد كالدعاء للولد

الفاسق ، والدعاء الموظَّف لداءٍ أو أدواءٍ نازلة .

وذِكْر الله بكل أنواعه وقاية وعلاج ، ويكون وقاية في الذكر المطلق ، وفي ذكر مقيد بأوقات وبأحوال كبعض الأدعية في الصلوات، ومنه علاجي وهو ما كان للنوازل.

وذكر الله يكون علاجاً ووقاية .. يكون من الفرد لنفسه تعبُّداً محضاً ، ودعاءً واستعاذة في أمور الدنيا والآخرة .. ويكون من الفرد لأقاربه وأصدقائه وإخوانه المسلمين .. ويكون لإمام المسلمين ؛ لأن نفع الدعاء له إذا استجيب عام المصلحة .

قال أبو عبدالرحمن : على المرءِ أن يُقسِّم دعاءه لكل هذه الأمور .

وإذا كان ذكر الله دعاءً فمن آدابه التقديم بذكر الله حمداً وتسبيحاً ؛ فإن المرء إذا طلب حاجته من مخلوق – ولله المثل الأعلى – قدَّم لحاجته بالثناء الحسن والتحية .

وقد كثرت المصنفات في ذكر الله مُطَوَّلة ومختصرة، وفي هذه الكثرة تكرار وتراكم ، وعامة الناس غير قادرين على استيعاب الأدعية لكثرتها ؛ فهم بحاجة إلى اختيار عالمٍ محقِّق يقصرهم على الصحيح الجامع في مختصراته .. فإن أراد نفع الخاصة ومعاونتهم بتأليفٍ مطوَّل فلا بد أن يكون عمله متميزاً عن عمل من سبقه مكملاً له أو مستدركاً أو مصححاً أو معارضاً مع تفسير الغامض ، ورفع إشكال المشكل ، ورد أخبار الآحاد والحالات الاستثنائية إلى الأصول والنصوص الصحيحة العامة أو ذات الثبات الأكثر .. ويُقَدِّم بالتحقيق الفقهي الأصولي لآداب الدعاء وما يُفضي إلى قبوله ، ويثنِّي بالمختار الصحيح من الذكر المطلق ، ثم يوالي هذا الاختيار مقدماً ما تعم به الحاجة كالأدعية الموظفة لأوقات معينة في اليوم والليلة ، أو أحوال متكررة في اليوم والليلة كالنوم واليقظة، ثم ذكر الله في النوازل الفردية .. ويترك

الذكر الموظف في العبادات كالصلاة والصوم والحج في آخر الأذكار الموظفة ؛ لأن ذلك مما تعم به البلوى ، ومن أوائل التعليم، ومُراعىً في كتب الفقه ، والله المستعان .

وكتبه لكم :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

– عفا الله عنه –

مكة المكرمة مساء يوم الاثنين ٤ / ٤ / ١٤٢٢هـ

ثم جرت المعاودة في فجر يوم السبت

الموافق ٢٣ / ٤ / ١٤٢٢هـ بجدة

* * *

[فأما أصحاب الألحان فإنما حدثوا في القرن الرابع .. منهم محمد ابن سعد ، والكرماني، والهيثم ، وأبان ؛ فكانوا مهجورين عند العلماء؛ فنقلوا القراءة إلى أوضاع لحون الأغاني ؛ فمدوا المقصور ، وقصروا الممدود ، وحركوا الساكن .. إلخ .. إلخ .

الحوادث والبدع ، ص ٥٨ لأبي بكر الطرطوشي ؛ تحقيق محمد بشير عيون ، – ط٢ ، – مكتبة المؤيد بالطائف ، عام ١٤١٣هـ.].

التجوز في الدعاء :

* * *

[أسند مسلم في صحيحه إلى أبي هريرة رضي الله عنه قوله : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ ؛ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا .. ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان .] .

* * *

قال الطرطوشي عن بدع أصحاب الألحان في القرآن الكريم : ومن ذلك الرَّهَبُ .. نظروا إلى كل موضع في القرآن فيه ذكر المسيح كقوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [سورة النساء / ١٧١]، وكقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ [سورة المائدة / ١١٦] ؛ فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة في الكنائس .

الحوادث والبدع ص٥٩] .

[دعاء الذهاب إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، ومن فوقي نوراً ، ومن تحتي نوراً ، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً، وعظِّمْ لي نوراً، واجعل لي نوراً، واجعلني نوراً ، اللهم أعطني نوراً ، واجعل في عَصَبِي نوراً ، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً ، وفي شعري نوراً ، وفي بشري نوراً(١) .. اللهم اجعل لي نوراً في قبري .. ونوراً في عظامي(٢) وزدني نوراً، وزدني نوراً ، وزدني نوراً(٣) ، وهب لي نوراً على(٤) نورٍ(٥) .].

(١) جميع هذه الخصال في البخاري ١١/١١٦ برقم ٦٣١٦ ومسلم ١/٥٢٦، ٥٢٩ ، ٥٣٠ برقم ٧٦٣ . [سعيد] .

(٢) الترمذي برقم ٣٤١٩ ، ٥/٤٨٣ [سعيد] .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ٦٩٥ ، ص ٢٥٨ ، وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٥٣٦ [سعيد] .

(٤) ذكره ابن حجر في فتح الباري وعزاه إلى ابن أبي عاصم في كتاب الدعاء.. انظر : الفتح ١١/١١٨ وقال : فاجتمع من اختلاف الروايات خمس وعشرون خصلة [سعيد] .

(٥) حصن المسلم في أذكار الكتاب والسنة للشيخ سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص٢١-٢٣ الطبعة السابعة عشرة عام ١٤١٦هـ ط م سفير بالرياض] .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [سورة الأعراف / ٥٥] .. وما لا يحبه الله فهو منهي عنه ، والجملة في الاعتداء : أنه مخالفة هدي الشرع في آداب الدعاء ، وأحكامه .. وتفصيلُه – وأكثر التجاوز في المعاني – : أن يسأل ربه غير مشروع من محرم ومكروه وغير ممكن .. كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم، أو يقول: اللهم إن شئت فأعطني.. فهذا منهي عنه كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المتفق عليه .. وهذا الدعاء دعاء مستكبر ممتنٍّ مستغن ؛ وبما أن الدعاء عبادة فلا يكون إلا عن تجرد من الحول والقوة ، واعتراف بالفقر والحاجة إلى الغني الواحد القادر سبحانه .. ومثل هذا التجوز ما ورثته الإذاعة والتلفاز من الأدعية البدعية الصوفية كقولهم : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ، وإنما نسألك اللطف فيه !!.. بل يكون الدعاء عازماً عن كل بلاء ، والله يدفع أقداره

بأقداره ، والدعاء وإجابته من أقداره سبحانه ، وتدافع الأقدار مرتب في سابق علمه سبحانه ، والدعاء والقدر يختلجان في السماء .. ومن الاعتداء أن يُضيِّق ما جعل الله له فيه سعة كالذي دعا بتعجيل عقوبة الله له في الدنيا كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند مسلم والترمذي والنَّسائي ؛ حتى قال رسول الله ﷺ: أفلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .. فهذا له سعة بأن يطلب من ربه العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة .. ولكن إذا وقعتْ عليه مصيبة دنيوية فيصبر، ويحتسب ، ويسأل الله أن تكون له تكفيراً وتطهيراً ، ويعلم أن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه .

وأما التجوز بالدعاء في اللفظ فالنهي عنه له أصل من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه لمَّا ردَّد ما

علَّمه إياه رسول الله ﷺ من دعاء ؛ فقال : ورسولك الذي أرسلت .. فقال له ﷺ : لا : ونبيك الذي أرسلت .. والحديث متفق عليه .

قال أبو عبدالرحمن : الناس ما بين جاهل بصيغ بعض الأدعية ، وحافظ لها اعتوره النسيان ؛ فيضطر إلى أن يدعو بألفاظ من عنده دعاءً صحيح المعنى ، وقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم أدعية موقوفة ، بل في المناسك أدعية صحيحة الثبوت عن أئمة الفقه غير مرفوعة إلى رسول الله ﷺ ؛ فمن ذلك دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه الموقوف عليه في القنوت : اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد : نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك إن عذابك بالكافرين ملحق .. اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك الخير ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخضع لك ، ونخلع من يكفرك .. فقد صححه موقوفاً على

عمر رضي الله عنه كل من البيهقي في السنن الكبرى ، والألباني في إرواء الغليل .. وليس من الشرط أن يكون في حكم المرفوع لفظاً إلا بمفهوم : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين.. ولكن معانيه كلها صحيحة شرعاً ، وبعض جمله وارد مفرَّقاً في نصوص شرعية صحيحة .

وفي أدعية الطواف توظيفاً بيَّن شيخنا العلامة الدكتور بكر أبو زيد ما صح وما لم يصح (١) ، وليس فيما صححه ما ورد من دعاء استحبه الإمام الشافعي رحمه الله بعد طواف الوداع .. قال القاضي عزالدين ابن جماعة [٦٩٤ - ٧٦٧هـ] : «فإذا فرغ من الركعتين فاستحب الشافعي رضي الله عنه أن يأتي الملتزم بين الركن والباب ، فيلصق بطنه وصدره بحائط البيت ،

---

(١) انظر : تصحيح الدعاء ، ص ٥١١ - ٥٢٤ ط دار العاصمة بالرياض / الطبعة الأولى عام ١٤١٩هـ .

ويبسط يديه على الجدار؛ فيجعل اليمنى مما يلي الباب، واليسرى مما يلي الحجر الأسود ، ويدعو بما أحب من أمور الدنيا والآخرة .. واستحب الشافعي أن يقول : اللهم البيت بيتك ، والعبد عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك .. حملتني على ما سخَّرت لي من خلقك ؛ حتّى أعنتني على قضاء مناسكك ؛ فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضىً .. وإلاّ فمن الآن قبل أن تُنائي عن بيتك داري .. هذا أوان انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا براغب عنك ولا عن بيتك .. اللهم فاصحبني العافية في بدني ، والعصمة في ديني ، وأحسن منقلبي ، وارزقني طاعتك ما أبقيتني ، واجمع لي خيري الدنيا والآخرة .. قال الشافعي : وما زاد فحسن» (٢) .

(٢) مناسك ابن جماعة على المذاهب الأربعة ؛ تحقيق الدكتور حسين بن سالم الدهماني . – ط١ تونس : ط م الكواكب ، عام ١٤٠٧هـ .

قال أبو عبد الرحمن : بعض هذا الدعاء صحيح المعنى وإن لم يصح مرفوعاً لفظاً ، ولا بأس بالدعاء به على الشرط الذي سأذكره إن شاء الله إطلاقاً لا تقييداً وتوظيفاً .. وبعضه لا يصح معناه إلا بتوقيف .

قال أبو عبدالرحمن : وإذْ صح كل هذا فإن المقرر في الدعاء لفظاً حتى لا يكون تجوزاً التالي :

١ - أن يحرص المسلم على حفظ الأدعية الشرعية الصحيحة إطلاقاً وتقييداً .

٢ - أن يتعهد حفظه؛ فيأتي بنص الدعاء الشرعي كما هو ؛ حتى لا يقع فيما استدركه رسول الله ﷺ على البراء رضي الله عنه .

٣ - إذا تعهد حفظه ثم اعتوره نسيان وقت الحاجة إلى الدعاء : فعليه أن يجتهد في إثبات اللفظ الذي يترجح له من حفظه، أو يعبِّر بمعناه، وقد استجاب الله لعباده أن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ .. ولكن عليه بعد ذلك أن يعيد المراجعة حتى يرسخ

النص في ذاكرته.

٤ - العامي الذي لا يحفظ الدعاء يدعو بما يحفظه ، ويعبِّر من نفسه وإن كان عامياً .. على أن يكون المعنى مما علم من أهل العلم صحته .. وهذا داخل في باب : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما تستطيعون .. بل قد يكل العامي الطلب إلى ما في قلبه من حوائج وإن لم يحسن التعبير كالجارية السوداء التي قالت : اللهم إني لقَّيتك سوادي وأنت أعلم بما في فؤادي .

٥ - يدرك المسلمَ في خلوة أو سعي أو طواف خشيةٌ وخشوع وقشعريرة ، وقد دعا بما يحضره من دعاء مرفوع ، ويطلب المزيد ..ثم يظهر له واقع حال ؛ فَيُفتح عليه في الدعاء بألفاظ غير مرفوعة غاية الصحة في المعنى ؛ فهذا مدد من ربه يستغله ساعته، ولا يسجله ليدعو به في المستقبل ويجعله بديل المرفوع أو يزاحمه به .

٦ - الحمد ذكر لله وليس دعاء إلا إذا تأول الخبر في

شأن من شغله ذكره اللهَ عن مسألته ؛ فذكْرُ الله حينئذٍ يتضمن الدعاء بدليل من خارج .. ولا حرج في حمد الله ابتداء بألفاظ من عند المكلَّف في شكره لربه من جهة تعداد نعم معينة لا من جهة صيغ الحمد ؛ لأنه مطلوب منه الحمد بإطلاق بالصيغ المشروعة ، والحمد على نعم معينة ليس من الشرط أن تكون مسماةً شرعاً .

قال أبو عبدالرحمن : بعد الكهولة تغيَّرت أحوالي بألطاف من ربي سبحانه؛ فكان لساني ينطلق تلقائياً بمثل : الحمد لله الذي أغناني بعد عيلة ، وأعزني بعد ذلة ، وكثرني بعد قلة .. أريد المال والولد وكثرة الداخلة من قريب وصديق بعد أن جمعتنا المدينة من القرى المتنائية، وكانت نفسي تنبسط وترتاح لهذا الحمد، وما من تجاوز؛ لأن الحمد كان باللفظ المأثور، وأما تعداد بعض النعم التي حمدت ربي عليها فلستُ مقيداً بلفظ معيِّن، بل أعدد من

النعم كما وقع.. ولله الحمد والفضل والمنة .

٧ - من التجوز البَحْتِ في الدعاء أن يستعمل دعاء شرعيّاً لا ينطبق على حالته كأن تقول أنثى حامل: رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً .. أو يقول رجل : رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي .. فهذا دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي علم من ربه - وهو أب أكثر البشر بعد نوح عليه السلام - أن ذريته ليست كلها كذلك .. أما سائر المسلمين فيعزم المسألة لجميع ذريته .

٨ - ليس من التجوز في الدعاء ما يتدفق به المنشؤون في خطب الجمع والأعياد والمناسبات ، وخطب المؤلفات إذا كانت المعاني صحيحة ؛ لأن السيرة العملية جرت بذلك من عهد السلف ، ولا يُبَدَّعُ ما جرت به السيرة العملية .. ولأنه لم يرد نصوص أدعية موظفة لهذه المناسبات ؛ فيكونون راغبين عن النص ، ولأن أي دعاء مطلق لا يفي كله

بمناسبات الخطب التي يُراعَى فيها براعة الاستهلال، وتعدد الأغراض ؛ فالله جعل لعباده سعة في استفتاح خطبهم ، ومزجها بالدعاء المأثور نصاً ، وإنما المهم صحة المعنى فيما يضيفونه من أدعية .. وأما العبادات ذات الأدعية الموظفة فلا يصح فيها غير المأثور إلا المعذور بالشرط الذي أسلفته .

٩ - ومن التجوز أن يكتب أدعية مطلقة أو موظفة ؛ ليحفظها ويدعو بها .. سواء أكانت من السجع المذموم ، أم بأسلوب : عبدالحميد ، أو الجاحظ ، أو ابن العميد، أو طه حسين ، أو سيد قطب ؛ لأن هذا رغبة عن ألفاظ الشرع وبلاغتها .. وإنما المغتفر ما أسلفته حينما يُفتح عليه بدعاء يكون وقتياً ، أو يغيب عنه النص فيعبِّر حسب قدرته الإنشائية بكلام مفهوم عن معانٍ شرعية صحيحة.. ومن أدلة النهي عن التجوز في الدعاء مارواه أبو داود في سننه بإسناده إلى أبي نعامة : أن عبدالله بن

مغفل رضي الله عنه سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها .. فقال: يا بني : سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء .

* * *

[روى ابن ماجه في سننه بإسناد صحيح : عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ – فيما يُتعوَّذ منه، ويكون رُقْية للمريض –: بسم الله أَرْقِيك من كل شيئ يُؤْذيك: من حَسَدِ حاسد ، ومن كل عين .. والله يشفيك .

* * *

ويجتنب المرءُ العيوبَ لأنها

لدى عائبيه – لا لديه – عيوبُ

الرصافي].

[قال الله تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [سورة فصلت /٤٩ – ٥٤] .

أهل الذكر في الغدو والآصال :

* * *

[أسند مسلم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

* * *

قال الطرطوشي عن نغمات الأغاني المطربة من بدع أصحاب الألحان في كلام الله: « ثم اشتقوا لها أسماء، فقالوا: شذر، ونبر، وتفريق، وتعليق ، وهز، وخز، وزمر، وزجر، وحذف، وتشريق، وإسجاح، وصياح.. ثم يقولون: مخرج هذا الحرف من الأنف، وهذا من الرأس، وهذا من الصدر، وهذا من الشدق؛ فما خرج من القحف فهو صياح، وما خرج من الجبهة فهو زجر ، وما خرج من اللهوات فهو نبر، وما خرج من الأنف فهو زمر، وما خرج من الحلق فهو خرير وشذر، وما خرج من الصدر فهو هرير.. وسموها لحوناً ».

الحوادث والبدع ص ٥٨ - ٥٩ .].

[﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[سورة البقرة / ٢٨٦] .

* * *

قال الطرطوشي: ومن ألحانهم في القرآن: البيزنطي، والرومي، والحساني، والمكي، والإسكندراني، والمصري، والكازوندي، والراعبي، والديباجي، والياقوتي، والعروسي، والزرجوان، والموجي، والمجوسي، والزنجي، والمنمنم، والسندي، وغيرها.. كرهنا ذكر التطويل بها؛ فهذه أسماء ابتدعوها في كتاب الله تعالى: ﴿ ما أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [سورة النجم/ ٢٣]؛ فالتالي منهم والسامع لا يقصدون فَهْمَ معانيه : من أمر ، أو نهي، أو وعد، أو وعيد، أو وعظ، أو تخويف، أو ضرب مثل، أو اقتضاء حكم، أو غير ذلك مما أنزل به القرآن.. وإنما هو للذة والطرب والنغمات والألحان.. كنقر الأوتار وأصوات المزامير .. كما قال الله عز وجل يذم قريشاً: ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال/ ٣٥] وإنما أنزل القرآن لِتُتَدَبَّر آياته وتُفهمَ معانيه » .

الحوادث والبدع ص ٥٩ - ٦٠ .] .

ورد النص في الدعاء والتسبيح والتحميد والذكر عموماً ؛ فمن ذلك توجيه الله لنبيه ﷺ تجاه قوم مؤمنين استضعفهم طغاة الكفار .. ومن صفاتهم ذكر الله طرفي الليل والنهار .. أمره ربه أن يقربهم ، وأن يصبر نفسه معهم ؛ لأجل عبودية الذكر ، ولا يرمق المنتفخة أُنوفهم عن العبودية لله من أجل مراكزهم ونفوذهم وغناهم .. وقد عاتب الله رسوله ﷺ في مثل هذا الموضع بسورة عبس.. ولا ريب أن الرسول ﷺ حريص على هداية البشر ، وأنه يستألف الأقوياء (١) ممن يرجو بإسلامهم عز الإسلام ؛ لما سلف من صفات الزعامة

(١) بينتُ كثيراً أن إفراد رأس الألف وسط السطر لا مسوِّغ له ، وأن الأولى رسم صورة الألف ، وأن توالي ألفين ليس أشنع من تغيير صورة الحرف.
قال أبو عبدالرحمن : وقد أجري مع الرسم المعتاد في مكاتباتي وبعض الدوريات ؛ حتى لا أتهم بجهل القاعدة ، ولأن تغيير الإِلفِ عسير .. وهكذا تعاملي مع رسم الآيات الكريمات .

والجاه .. إلا انه سبحانه لم يجعل هذا الهدف النبيل ملغياً أدنى رعاية لعباده المؤمنين السابقين الذين يستكبر عليهم أولئك الكفرة .. قال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [سورة الأنعام / ٥١ – ٥٤].

قال أبو عبدالرحمن : هذه الآيات الكريمات في

سياق محاورة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.. واستغرابُهم بقولهم الذي قصَّه الله عنهم : ﴿**أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا**﴾ : دليل على أنهم مستقلُّون للمؤمنين، مستكثرون لقربهم من رسول الله ﷺ ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿**وَلا تَطْرُدِ ...**﴾ الآيات .. وقوله تعالى : ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ ...**﴾ .. وكل هذا يعني خصوصية الاهتمام بهم ، وأن الكفار قد قامت عليهم الحجة ، وحصل لهم البلاغ الكامل ؛ فليسوا أهلاً لأن يخصهم رسول الله ﷺ بالاهتمام ، أو يحزن عليهم وتذهب نفسه عليهم حسرات كما في سورة فاطر .. إذن السياق عن كافر مستكبر، ومؤمن سابق مستضعف، وأمْرٍ لأتقى الخلق وأخشاهم لله عليه الصلاة والسلام أن يهتم بالمؤمنين أهل الذكر ، وأن يصبر نفسه معهم في هذه العبادة .. ثم جاء خبر صحيح عن رسول الله ﷺ يؤيد دلالة السياق هذه .. قال الحاكم :

«أخبرني أبو علي الحافظ: أنبأنا إبراهيم بن أبي طالب: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا مؤمل بن سفيان: حدثنا إسماعيل بن المقدام: عن المقدام بن شريح: عن أبيه: عن سعد بن أبي وقاص [رضي الله عنهم] في هذه الآية: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [سورة الأنعام/ ٥٢].. قال: نزلت في خمس من قريش - أنا، وابن مسعود فيهم -: فقالت قريش للنبي ﷺ: لو طردتَ هؤلاء عنك جالسناك.. تدني هؤلاء دوننا؟!.. فنزلت: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ إلى قوله: ﴿**بِالشَّاكِرِينَ**﴾.. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» (٢).

(٢) المستدرك ٣/ ٣٦١ في مناقب ابن مسعود من كتاب الصحابة رضي الله عنهم / توزيع عباس الباز بمكة المكرمة / دار الكتب العلمية / طبعتهم الأولى عام ١٤١١هـ.

قال أبو عبدالرحمن: وأيده الذهبي في التلخيص، وصححه ابن حبان ، وله شاهد يأتي من صحيح مسلم يدل على أن مسلماً أخرجه بما هو أتم .

ويدل على كل ماسبق آية في سورة كريمة أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [سورة الكهف / ٢٨] ؛ فهذه الآية شاهد للآية من سورة الأنعام بأن لا يطردهم بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَعْدُ** .. ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَلَا تُطِعْ** ﴾، ثم بتوجيه الله له بأن يقول للمستكبرين: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ... ﴾ [سورة الكهف / ٢٩] .. وهي مكملة لها بقوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ** ﴾ .

والله سبحانه لا يُغفل قلب أحد ابتداء [٣] ، وإنما يكون ذلك عقوبة على كفر وإصرار ومحادَّة ؛ إذن هؤلاء الكفار بلغت دعوة الرسول ﷺ لهم غايتها ، وقامت عليهم الحجة بالبراهين ، وكفروا عن عناد ، وساوموا على الحق بطلبهم طرد المؤمنين : فلم يبق إلا الاحتفاء بالمؤمنين السابقين .

وكل ما سبق أيضاً دل عليه خبر صحيح عن رسول الله ﷺ رواه الإمام مسلم ، فقال : « حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة : حدثنا محمد بن عبدالله الأسدي : عن إسرائيل : عن المقدام بن شريح : عن أبيه : عن سعد [هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه] قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ؛ فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء

(٣) انظر : التعليقة رقم (١) .

لا يجترؤون[٤] علينا .. قال: وكنت أنا ، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال ، ورجلان لست أُسمِّيهما [٥]؛ فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء [٦] الله أن يقع ؛ فحدَّث نفسه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [٧] .

وقال مسلم : حدثنا زهير بن حرب : حدثنا عبدالرحمن : عن سفيان : عن المقدام بن شريح : عن أبيه : عن سعد : فيَّ نزلت : ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ .. وقال : نزلت في ستة : أنا

---

(٤) رسمها هكذا « يجترئون » صحيح ، وما أثبته أصح وأرجح ، وأصح منهما وأرجح يجترأون حسبما شرحته في كتابي رسم القلم ورموزه .

(٥) أي لنسياني من هما .

(٦) انظر : التعليقة رقم (١).

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٩٦ في مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه / دار القلم .

وابن مسعود منهم .. وكان المشركون قالوا له : تدني هؤلاء ؟ »[٨] .

قال أبو عبدالرحمن : لست أدري كيف فات الحافظَ الذهبي التنبيهُ على وَهْم الحاكم في دعواه أن الحديث لم يخرجاه .. مع أنه في صحيح مسلم بمتن أوفى .. وقد مرَّت رواية الحاكم ، وفي مقارنتها بروايتي مسلم نجد التالي :

١ – مدار الحديث على المقدام بن شريح : عن أبيه .

٢ – رواه عن المقدام : إسماعيل ، وإسرائيل ، وسفيان .

٣ – في رواية إسماعيل عند الحاكم : أنها نزلت في خمس[٩] من قريش فيهم سعد وابن مسعود رضي الله عنهما ، وأن الكفار اشترطوا لمجالستهم رسول

(٨) المصدر السابق ، والحديثان برقم ٢٤١٣ .

(٩) هذه الرواية صحيحة نحواً ؛ لأن المعدود محذوف ؛ فيجوز تذكير العدد وتأنيثه.. وفي ص٨٣: نزلت في ستة .. أنَّث العددَ والمعدودُ محذوف.. أي نفر.

الله ﷺ أن يطرد من استضعفوهم من المؤمنين ، وأنهم قالوا مستغربين : تدني هؤلاء دوننا ؟ .

٤ - في رواية إسرائيل [١٠] عند مسلم : أنهم ستة نفر.. وحريٌّ أن سعداً رضي الله عنه لم يضبط العدد بدليل قوله : « ورجلان لست أُسمِّيهما » .. أي أنه لم يتذكر من هما ؛ فأصل الشك موجود ، ويحتمل أن يكونوا خمسة ، وأن الذي لم يُسَمِّه واحدٌ وليسا اثنين .. ويُحتمل أن يكون ضابطاً لأصل العدد ، وأنهم ستة ، وأنه غاب عنه اسم رجلين .. وعلى أي حال فغياب واحد أو اثنين عن الذاكرة يُحتمل منه صحة العدد ستة ، وصحة غياب اثنين .. ويحتمل منه خطأ العدد ستة ، وخطأ غياب اثنين ، وأن العدد خمسة والغائب

(١٠) هو ابن يونس بن أبي إسحاق السبيعي .

واحد .. وهذا يرد كثيراً في حياة الناس اليومية .. على أن رواية سفيان عند مسلم أَكَّدت أن العدد ستة ؛ فيكون الوهم من إسماعيل عند الحاكم .

٥ - في رواية إسرائيل عند مسلم إضافة قول الكفار : «لا يجترؤون علينا»، ولم يذكر المجالسة ؛ فصارت كل رواية مكملة للأخرى .. وليس كل من شهد حدثاً يحصي تفاصيله ، وإنما يذكر كل واحد من أرباب المجلس ما أغفله الآخر، أو يكون شاهد الحدث ذكر جزئية وغفل عن أخرى، ثم حدَّث ثانية فذكر ما أغفله وأغفل ما ذكره .. وكل ذلك بلا تناقض، وهذا عادي في حياة الناس ما لم يكن ثم تناقض .

٦ - أضافت رواية إسرائيل - وهي الأصل المعتمد - ذكر بلال ورجل من هذيل ؛ فَتُرَدُّ رواية إسماعيل وسفيان إلى رواية إسرائيل .

٧ - وهكذا كل التفاصيل التي لم تَرِدْ عند إسماعيل

وسفيان .. ومن كل هذه التفاصيل يظهر العجب من قول الحاكم : ولم يخرجاه .. وهو لم يأت إلا بمتن مختصر !!.

٨ – أضافت رواية سفيان « تدني هؤلاء » ، وأضافت رواية إسماعيل « دوننا » ؛ فعلمنا أن رواية إسرائيل مختصرة في هذه الجزئية .

قال أبو عبدالرحمن : لم يُرِدْ رسول الله ﷺ – بأبي هو وأمي – زينة الحياة الدنيا كما يتبادر إلى الذهن من عتاب الله له في سورة الكهف ، وإنما كان ربنا سبحانه يُغَلِّظ على صفيه وخيرته من خلقه في العتاب والنهي – كما في سورتي يونس ، والإسراء – ؛ ليجرده للعبودية .. إذن قوله تعالى ﴿ **تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ : قيد لما لم يحصل من المنهي عنه فيما لو حصل .. والتقدير : ولا تعد عيناك عنهم وأنت تريد زينة الحياة. أما الذي وقع في نفس محمد ﷺ كما في صحيح

مسلم : فيقول أبو عبدالرحمن ابن عقيل : والله الذي لا إله إلا هو – لا رب غيره ، ولا يستحق أحد أن يقسم به إلا هو – : إنه لم يقع في نفس محمد ﷺ ألبتة أنه يريد زينة الحياة الدنيا .. هذا محال من شهادة الله ، وتفضيله إياه .. ومن حلف على القطعي من دين ربه فيمينه منتهى البر والصدق .. وإنما وقع في نفسه عليه الصلاة والسلام فعل المنهي عنه بدون قيده ، وذلك قبل ورود النهي .. أي وقع في نفسه أن يقرِّب الكفار ، ويبعد المؤمنين إلى أجل .. لا لإرادة زينة الحياة الدنيا ، بل لاستئلاف الكفار مع ثقته بالمؤمنين .. إلا أن الله لم يُمْضِ اجتهاده ؛ فنزلت الآية الكريمة .

وأما الآية من سورة الحجر فهي نهي له عليه الصلاة والسلام أن ينظر إلى إمتاع الله لهم .. [11] لا لأنه يريد

(11) تقدير الكلام قبل ذلك : ليس نهي الله له من أجل أنه يريد .. فناسب وضع النقطتين الأفقيتين مكان الكلام المقدر ؛ لأنهما أقل علامة للحذف ، وهي علامة لانقطاع الكلام واستئناف غيره مغنيةٌ عن وضع نقطة ثم ابتداءٍ من أول السطر .

زينة الحياة الدنيا لذاتها ؛ بل لأنها ذات أثر في تقوية المسلمين إذا حصل استئلافهم وتقديمهم .. فأمره ربه أن يقدم المؤمنين ، ولا يعبأ بمتاع الكفار ، ولا يحزن عليهم لكفرهم ، فتذهب نفسه عليهم حسرات ؛ لأنه قد بلَّغ غاية البلاغ .. قال تعالى : ﴿**لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة الحجر / ٨٨] .

قال أبو عبدالرحمن : وربما قال قائل : كيف يلغي أبو عبدالرحمن ما أثبته الله من قيدٍ ، وهو إرادة زينة الحياة الدنيا ؟ .. والجواب : أن الذي ألغيته غير الذي أثبته ربنا سبحانه .. أي أنني ألغيت أن محمداً ﷺ يريد زينة الحياة الدنيا ، والله سبحانه لم يخبر عن صفيِّه بذلك ، وإنما نهاه أن يريد .. وليس كلُّ منهيٍّ واقعاً فيما نُهي عنه ، والله سبحانه وتعالى نهى صفيَّه عليه الصلاة والسلام عن الشرك وهو سيِّد الموحِّدين !.

قال أبو عبدالرحمن : وربما قال قائل : ما فائدة نهي من لم يقع في قلبه إرادة ذلك .. والجواب من وجوه :

أولها : حصول اليقين في لغة العرب، ولغة الشرع، والمعقول: أنه ليس كل منهيٍّ يكون واقعاً في المنهي عنه؛ فالنهي لمحمد ﷺ تأكيد لتجريده للعبودية، وتعليم لأمته.

وثانيها: أن الذي وقع في خاطر محمد ﷺ تقريب ذوي زينة الحياة الدنيا.. لا إرادة الزينة نفسها.. وهذه الإرادة لاستئلافهم وتقوية الإسلام بهم ؛ لأنهم ذوو زينة متبوعون .. مع ثقته بمن استضعفه الكفار من المؤمنين إذا أبعدهم .

وثالثها : جعل الله إدناء ذوي الزينة في حكم إرادة الزينة : إما لأن الناس لا يعلمون ما في القلوب ؛ فيظنون أن الرسول ﷺ أراد الزينة .. وإما لأن إدناءهم ومؤانستهم يُفضي ولو بعد حين إلى مؤانستهم ومشاركتهم

في الزينة .. والرسول ﷺ مضمون له أن لا يفعل ذلك؛ فكان قطع الذريعة تعليماً لأمته .

قال أبو عبدالرحمن: والاستئلاف الذي يريده رسول الله ﷺ مشروع، ولكن الله ألغى مشروعيته في هذا الموضع، ولم يُمض اجتهادَ عبده ورسوله محمد ﷺ لسببين :

أولهما: ما مضى في علم الله من استمرار ضلالهم، وما ظهر في الواقع من بلوغ رسول الله ﷺ غاية الإبلاغ لهم ، وقيام تمام الحجة عليهم .

وثانيهما : أنه لا كرامة للكفار؛ فلا يُبعد المؤمنون – ولو إلى حين – من أجلهم .

وبإيجاز فسياق الآية من سورة الحجر موافق لسياق الآيتين من سورتي الأنعام والكهف، وكل ذلك شاهد لصحة حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهكذا يوافقهن السياق من سورة طه؛ إذ أمره ربه بسيما الذاكرين

لله طرفي الليل والنهار ، المعرضين عن استكبار الكفار ..

قال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [سورة طه/ ١٣٠ - ١٣١] .

قال أبو عبدالرحمن : كل هذه الآيات عن فضل ذكر الله طرفي الليل والنهار .. والرسول ﷺ متبوع لا تابع ، ومع هذا أمره ربه أن يكون مع هؤلاء الذاكرين وهو خيرهم ؛ لأنه أتقى الخلق لربه ، وأخشاهم له ؛ ليؤكد له ربه عظم شأن هذه الوظيفة ، وأن لا يشغله عن ذلك (إذ هو ولي أمر المسلمين) مطلب مصلحي كبير - وهو ما يرجوه من وراء استئلاف الكفار - ، وأكد عليه ربه ضرورة هذه الوظيفة والقيام بها (وهي

وظيفة الملائكة الكرام عليهم السلام) ؛ فقال تعالى : ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾ [سورة الأعراف / ٢٠٥ – ٢٠٦] .

وهذا الذكر لم يُنسخ بالصلوات الخمس، وغاية ما في الأمر أن هذه الآية الكريمة مكية نزلت قبل فرض الصلاة، ثم زاد فرض الصلاة وبقي الذكر على عموم الأمر، بل جاء تأكيده في سورتين مدنيتين؛ فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [سورة الأحزاب / ٤١–٤٢]، وقال تعالى : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ . . .** ﴾ [سورة النور / ٣٦ – ٣٧] .

قال أبو عبدالرحمن : إذن ذكر الله زائد على الصلاة ، ولكن يجمعهما مَعِيَّةُ المكان في المساجد ، ومعية الزمان أطراف الليل والنهار .. ووردت نصوص صريحة متواترة صحيحة عن صيغ لذكر الله ليست من أعمال الصلاة تُقال طرفي الليل والنهار .

ومن النصوص الآمرة بالذكر قوله تعالى: ﴿ ...**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ [سورة غافر/ ٥٥]، وقال تعالى : ﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾ [سورة ق /٣٩ – ٤٠].

قال أبو عبدالرحمن : ذكر الله مشروع لذاته ، ومن لم يذكر الله إلا في حالةٍ وُظِّف فيها الذكر : فلم يذكر الله إلا بالمناسبة !! .. قال حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : «لم يفرض الله فريضة إلا عذر أهلها في حالِ عذرٍ غير الذكر ؛ فإن الله لم يجعل له

حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه ؛ فقال : ﴿ **فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾ [سورة النساء / ١٠٣] (١٢) .

ومثل ذلك قوله تعالى عن مدح ذوي الألباب : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ...** ﴾ [سورة آل عمران / ١٩١]، ومثله قوله تعالى معلماً عباده : ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ** ﴾ [سورة الروم / ١٧-١٨] .. والتسبيح والتحميد من ذكر الله .

ويظهر أن ذكر الله أطراف الليل والنهار من شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى عن زكريا عليه الصلاة والسلام وقومه : ﴿ **... فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ [سورة مريم / ١١] ، وقال له ربه :

(١٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٦٠٩ في تفسير الآية ٤١ من سورة الأحزاب .

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [سورة آل عمران/ ٤١] .. وأمر نبيه داود عليه السلام ؛ فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [سورة ص/١٨] .. وإنما وظف داود عليه السلام العشي والإشراق للتسبيح بأمر شرعي ، والإبكار ما بين صلاة الفجر إلى الزوال، والعشي ما بين زوال الشمس وغروبها، والآصال ما بعد العصر إلى المغرب .

* * *

[رُوي أن محمد بن عبدالحكم أرسل إلى الشافعي يعزيه في ميت له :

إنا معزوك لا أنَّا على ثقةٍ
من البقاءِ ولكن سنة الدين
فلا المَعُزَّى بباق بعد صاحبه
ولا المُعَزِّي وإن عاشا إلى حين

الحوادث والبدع ص١٣٣] .

كيف نستعيذ من شر ما لم نعمل ؟!:

* * *

[أسند مسلم في صحيحه إلى أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال : من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج – ثلاثاً – غير تمام .. فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام .. فقال : اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل ؛ فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين: قال الله تعالى: حمدني عبدي.. وإذا قال: الرحمن الرحيم: قال الله تعالى: أثنى علي عبدي.. وإذا قال : مالك يوم الدين: قال مجّدني عبدي .. وقال مرة : فوّض إلي عبدي .. فإذا قال: إياك نعبدُ وإياك نستعين: قال : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل .. فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين: قال: هذا لعبدي ، ولعبدي ماسأل.

* * *

روى البخاري في صحيحه: عن أنس رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، إنْ كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات .].

[أسند البخاري في صحيحه إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت – وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس –؛ إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به ، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه .. وأنا أنظر لا أُغني شيئاً لو كان لي منعة .. قال: فجعلوا يضحكون ، ويحيل بعضهم على بعض ، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره .. فرفع رأسه ثم قال : اللهم عليك بقريش .. ثلاث مرات.. فشق عليهم ؛ إذْ دعا عليهم .. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة .. ثم سمَّى : اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط .. وعدَّ السابع فلم نحفظه .. قال : فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدَّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب .. قليب بدر .].

قال الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن يحيى، وإسحاق ابن راهويه - واللفظ ليحيى - قالا : أخبرنا جرير : عن منصور : عن هلال : عن فروة بن نوفل الأشجعي قال : سألت عائشة [رضي الله عنها] عما كان رسول الله ﷺ يدعو به الله ؟.. قالت كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ، ومن شر ما لم أعمل) [١] .

ورواه أبو داود فقال : حدثنا عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير : عن منصور .. الحديث إسناداً ومتناً [٢] .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا عبدالله بن إدريس : عن حصين : عن هلال : عن فروة ... الحديث[٣] .

وقال النسائي: أخبرني محمد بن قدامة: عن جرير..

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٨ / ٤١ .

(٢) سنن أبي داود ٢ / ٩٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ٢ / ١٢٦٢م .

الحديث بمثل رواية مسلم إلا أنه قال : عما كان رسول الله ﷺ يدعو.. قالت.. ومن يعني شر ما لم أعمل[٤].

وقال : أخبرنا هناد بن السري: عن أبي الأحوص: عن حصين : عن هلال .. الحديث بمثل رواية ابن ماجه[٥].

وقال : أخبرنا محمد بن عبدالأعلى قال : حدثنا المعتمر : عن أبيه : عن حصين : عن هلال بن يساف : عن فروة بن نوفل قال : سألتُ عائشة [رضي الله عنها]؛ فقلت : حدثيني بشيئ [٦] كان رسول الله ﷺ يدعو به ؟.. قالت .. الحديث[٧] .

(٤) السنن الكبرى ٤ / ٤٦٦ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) بناء على المعتاد رجحتُ كتابة رأس الألف على نبرة ثانية غير الياء الأصلية هكذا «شيئ» .. ، والأصح الأرجح «بشيإٍ» حسبما شرحته في كتابي رسم القلم ورموزه .

(٧) السنن الكبرى ٤ /٤٦٦ .

وقال : أخبرنا محمود بن غيلان قال : حدثنا أبو داود قال : حدثنا شعبة : عن حصين : سمعت هلال .. الحديث(٨).

وقال : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم : أنبأنا جرير : عن منصور : عن هلال بن يساف : عن فروة بن نوفل قال : قلتُ لعائشة [رضي الله عنها] : حدثيني بشيئ كان رسول الله ﷺ يدعو به ؟ .. فقالت : نعم كان يقول.. الحديث .. وفي بعض النسخ: علمت.. وأعلم(٩).

وقال : أخبرنا يونس بن عبد الأعلى : عن ابن وهب قال: أخبرني موسى بن أبي شيبة : عن الأوزاعي:

---

(٨) المصدر السابق .

(٩) السنن الكبرى ١/ ٣٨٨ - ٣٨٩ ؛ ولهذا قال أبو الفتح محمد بن محمد ابن علي بن هُمام - ابن الإمام - [٦٧٧ - ٦٥٥هـ] في كتابه «سلاح المؤمن الدعاء» ، ص ٥١٣ : وفي رواية للنسائي من شر ما علمت ، ومن شر ما لم أعلم .. ولم يذكر الألباني هذه الرواية ؛ مما يؤيد أنها انفراد نسخةٍ من النسخ ؛ فَتُردُّ إلى النسخ الأخرى بناءً على المحفوظ .

عن عبدة ابن أبي لبابة : أن ابن يساف حدثه : أنه سأل عائشة [رضي الله عنها] زوج النبي ﷺ : ما كان أكثر ما يدعو به رسول الله ﷺ قبل موته ؟ .. قالت : كان أكثر ما يدعو به : اللهم .. الحديث.. إلا أنه قال : ومن سوء ما لم أعمل(١٠) .. وصحح الألباني رحمه الله كل هذه الروايات السابقة واللاحقة في كتبه : صحيح أبي داود ، وصحيح ابن ماجه ، وصحيح النسائي ، وظلال الجنة .. ولم يُبيِّن الاختلاف في روايات النسائي ، ويرجح بينها .

وقال النسائي: أخبرني عمران بن بكار قال : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا الأوزاعي قال : حدثنا عبدة قال : حدثني ابن يساف قال : سئلت عائشة [رضي الله عنها]: ما كان أكثر ما يدعو به النبي ﷺ؟..

---

(١٠) السنن الكبرى ٤ / ٤٦٥ .

فقالت : كان أكثر دعائه أن يقول : اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل بعد(١١) .

قال أبو عبدالرحمن : هذا خبر آحاد مداره على هلال بن يساف ، ثم على شيخه فروة بن نوفل .. ثم رواه عن هلال كل من منصور بن المعتمر ، وحصين بن عبدالرحمن السلمي، وعبدة بن أبي لبابة.. والاختلاف المؤثِّر (١٢) كالتالي :

١ – ماورد في إحدى النسخ من السنن الكبرى للنسائي، وهو: علمتُ ، وأعلم .. وسند النسائي في هذا عن إسحاق بن راهويه: عن جرير بن عبدالحميد: عن منصور.

٢ – زيادة « قبل موته » و « من سوء » ، « وأن ذلك أكثر

---

(١١) المصدر السابق ٤ /٤٦٥ – ٤٦٦ .

(١٢) الأصح الأرجح مراعاة حركة الألف لا حركة ما قبلها ؛فتكتب «المأْثِر» حسبما شرحته في كتابي رسم القلم .

دعائه » . . وفيها أن السائل هلال . . وكل هذا عند النسائي : عن عبدالله بن وهب بن مسلم الفقيه : عن موسى بن أبي شيبة – ولم يرو عنه غير ابن وهب –: عن الأوزاعي : عن ابن أبي لبابة .

٣ ـ أن هذا الدعاء أكثر دعائه، وزيادة كلمة « بعد » في قوله : « ما لم أعمل بعد » . . وهما عند النسائي : عن عمران بن بكار : عن أبي المغيرة – هو عبدالقدوس ابن الحجاج – عن الأوزاعي .

قال أبو عبدالرحمن : أما رواية : علمت، وأعلم فهي مخالفة لبقية نسخ النسائي . . كما أنها تقضي بمخالفة ابن راهويه لما رواه كل من يحيى بن يحيى ، وعثمان بن أبي شيبة، ومحمد بن قدامة : عن جرير بلفظ : عملت، وأعمل . . وإن صح أن هذه هي رواية الحافظ ابن راهويه : فمن دقة نظر مسلم أنه اختار المتن من رواية يحيى .

وأما زيادة «قبل موته» ، وعبارة «من سوء» فهي مما تفرد به موسى بن أبي شيبة عن الأوزاعي .. وأما زيادة «بعد» فقد تفرد بها أبو المغيرة : عن الأوزاعي .. وروايتا الأوزاعي هاتان : عن ابن أبي لبابة: عن ابن يساف : بخلاف رواية منصور ، وحصين .. وأما «زيادة أن ذلك أكثر دعائه» : فمدارها على الأوزاعي، ثم على شيخه ابن أبي لبابة .

قال أبو عبدالرحمن: هذا ما يتعلق بتحقيق الحديث رواية ، وأما تحقيقه فقهاً فذلك ما يتعلق باستشكال التعوذ مما لم نعمل ؟ .. وأحب أولاً أن ألخص كلام العلماء في ذلك على هذا النحو :

١ – المعنى أعوذ بك من شر ما عملته من غير قصد(١٣)؛ فكأنه في حكم ما لم نعمل .

(١٣) شرح النووي لصحيح مسلم ١٨ / ٤١ – ٤٢ .

٢ – المعنى تعليم الأمة الدعاء(١٤) ؟!.

٣ – المعنى حمل الحديث على معنى التعوذ من شر المني .. وهذا من إيماء الحافظ أبي محمد الحسين البغوي رحمه الله تعالى ؛ لأنه أورد الحديث الذي فيه «وشر منيتي» ، ثم نقل عن راوي الحديث سعد بن أوس العبسي أنه قال : والمني ماؤه – يعني ماء الرجل الذي يكون منه الولد بإذن الله – ثم عقب البغوي بقوله : «وقد صح عن عائشة [رضي الله عنها] قالت : كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ، ومن شر ما لم أعمل» .. ثم ساق أحاديث توافق بقية معاني حديث سعد بن أوس (١٥) .

٤ – المعنى ما سيعمله في المستقبل (١٦) .

---

(١٤) الأصح الأرجح «الدعاءُ» وإن توالت الألفان .

(١٥) شرح السنة ٣/٣٨٧ .

(١٦) استبعده الطيبي ؛ لبعده عن ظاهر اللفظ .. وعارضه القاري ببيان نكتة مخالفة الظاهر .

٥ – المعنى الاستعاذة من أن يصير معجباً بنفسه في ترك القبائح [١٧] .

٦ – المعنى الاستعاذة من شر عمل غيره مما تعم عقوبته في الدنيا غير العامل كما في قوله تعالى: ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ [١٨] .

٧ – المعنى الاستعاذة من كونه محباً للحمد بما لم يعمل.

قال أبو عبدالرحمن: الأقوال الأربعة الأخيرة أوردها الطيبي في شرحه لمشكاة المصابيح ، وعلق عليها الملا علي القاري بقوله : «وكل منها في غاية البهاء»[١٩] .

ومن العلماء من لم يفسر هذا الجزء من الحديث كأبي الفتح ابن الإمام [٢٠] ، والحافظ ابن حجر .. قال

(١٧) كتب الشراح مليئة بمثل هذه الأقوال التي لا تدل عليها لغة النص .

(١٨) رجحه الطيبي ، وقال : إنه أقرب .

(١٩) المرقاة ٥/٣١٩ .

(٢٠) انظر : سلاح المؤمن الدعاء ، ص ٥١٣ .

الطيبي عن سكوت الأخير : «وأغرب ابن حجر حيث لم يفسر قوله : «ومن شر ما لم أعمل» .. وكأنه حَمل على أن «لا أدري» نصف العلم .

قال أبو عبدالرحمن : المعنى الصحيح الظاهر المتعيِّن خارج هذه الأقوال ، والاهتداء إليه سهل بدهي بحمد الله ، وهو أن نحمل معنى النص على معهود الشرع .. وبيان ذلك: أن المكلف يؤجر على فعل المطلوب شرعاً ، ويؤجر على ترك المنهي عنه .. كما أنه يأثم بفعل المنهي عنه ، ويأثم على ترك المطلوب .. والمسلم لا يتعوذ مما يؤجر عليه ، بل يسأل الله الاستقامة عليه ، والازدياد منه .. وإنما يستعيذ الله من شر ما يأثم عليه؛ فصح أن الرسول ﷺ تعوذ من شر عمل يأثم فاعله ، وتعوذ من شر تركٍ يأثم تاركه .

وأما القول الأول فباطل ؛ لأنه دعوى على الحديث بلا برهان .. ووجه الدعوى أنه وصف ما عمل من غير

قصد بأنه مما لم يعمل .. وهذا غير صحيح ، بل هو مما عمل ، وكونه عن غير قصد صفة للعمل ، وليس سلباً له في الواقع .. ودعاء الله برفع الحرج عن ذلك ثابت بنصوص أخرى ، وليس مدلولاً لهذا الحديث .

والقول الثاني أشد بطلاناً ؛ لأنه دعوى حول غاية الدعاء وحكمته .. وليس هذا محل النزاع ، إنما المراد بيان معنى الدعاء ، وأما توجيه حكمته ففرع عن ذلك.

والقول الثالث لو صح في ذاته لما كان معنى لهذا الحديث ؛ لأن إلقاء المني من عمل ابن آدم وأسبابه ؛ فلا يوصف بأنه مما لم يعمل .. وهو بعيدٌ مُزاحِم لظاهر الحديث ؛ لأن الرسول ﷺ جعل «عملت» قسيماً لما «لم يعمل» ، ولا يتحقق ذلك إلا في عملٍ يتعلق به الإثم ، وتركٍ يتعلق به الإثم .

وأما كون الرسول ﷺ معصوماً لم يأت ما يأثم عليه فأمر صحيح ، ولكن الرسول ﷺ تجرَّد للعبودية لله

بالتحرج من عمل عُوتب عليه – وهو مرفوع عنه إثمه – كالعتاب في أسرى بدر ، والعتاب في سورة عبس – .. وتحرُّجُ رسول الله ﷺ من أي تقصير في العبادة يليق بكونه المصطفى ؛ فهذا غاية العبودية لله ، والبراءة من الاتكال على العمل .. والأمة داخلة في الخطاب ، وهذا الدعاء بها أولى .

وأما القول الرابع فموافق لرواية « بعد » إلا أن اتفاق الحفاظ دل على أنها غير محفوظة ، وفي معناها بعض نكارة ؛ لأن مآلها : ومن شر ما سأعمل مما لم أعمل بعد؛ فكان ذلك وعداً بعمل مايأثم عليه !!.. والدعاء في مثل هذا طَلَبُ العصمة من الفعل أساساً ، وليس طلب رفع حوبه فقط .

والقول الخامس باطل ؛ لأن الإعجاب من عمل القلوب ؛ فلا يصدق عليه « ما لم أعمل » .. والإعجاب يرد أيضاً على فعل الطاعات .. والقول السادس صحيح

بنصوص أخرى في التعوذ من الفتن ، ولا يتناوله عموم الحديث؛ لأن الحديث كما أسلفت عما ينبغي للمسلم من الترك، وهو القسيم لما ينبغي له من الفعل.. والقول السابع باطل ؛ لأن الحب من عمل القلوب ؛ فلا يصدق عليه «ما لم أعمل» ، والله المستعان .

وكتبه لكم :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

– عفا الله عنه –

مكة المكرمة منتصف الليلة التي صبيحتها يوم الثلاثاء ٥ / ٤ / ١٤٢٢هـ، وتمت المعاودة فجر يوم السبت الموافق ٢٣ / ٤ / ١٤٢٢هـ، وتمت المعاودة فجر يوم الجمعة الموافق ١٨ / ٧ / ١٤٢٢هـ بالمستظلَّة بالثمامة بالرياض .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده المرسلين .

[في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : انظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإني عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب . . قال ابن حجر في فتح الباري : ولا يرد على ذلك ما وقع في الأحاديث الصحيحة ؛ لأن ذلك كان يصدر من غير قصد إليه ؛ ولأجل أن يجيء في غاية الانسجام كقوله ﷺ في الجهاد : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، هازم الأحزاب .

* * *

قال عبدالرحمن بن أبي حفصة عن بعض رواة الشعر :

زوامل للأشعار لا علم عندهم
بجيدهــا إلا كعلــم الأبـاعــر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا
بأسفـاره أو راح ما فــي الغرائر]

خلال هذين الشهرين إن شاء الله

يصدر لصاحب دار ابن حزم

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري:

- أيوب عليه الصلاة والسلام (من سلسلة أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وأحكام النبوة والرسالة).
- الضميمة الأولى من سلسلة ((ما يُراه النائم تأصيلاً وتعبيراً)).
- معنى أن الفكر إسلامي (سلسلة الفكر الإسلامي).
- الضميمة الأولى من سلسلة العقل الجمالي.
- الضميمة الأولى من سلسلة رسم القلم ورموزه.

٩٩٦٠-

Najd Commercial Printing Press
Tel. 4488024 - 4488026